الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique ET Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

Université Chadli Bendjedid – El Tarf

كلية الآداب واللغات

Faculté des Lettres et des Langues

قسم اللغة والأدب العربي

Département de Langue et Littérature Arabes

الميدان: اللغة والأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب شعبي

مذكرة بعنوان:

صورة الآخر في أدب الرحلة "في مدينة الضباب ومدن أخرى" لعبد الله ركيبي ـأنموذجاـ

مذكر لنيل متطلبات شهادة الماستر في الأدب الشعبي

إعداد الطالبة:

- ✓ **عقيلة رزيق**

تحت إشراف الأستاذ:

❖ **د/ ماجدة بن عميرة**

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د/عبد الوهاب بويمة	أستاذ محاضر ـأـ	جامعة الشاذلي بن جديد	رئيسا
د/ ماجدة بن عميرة	أستاذة محاضرة ـأـ	جامعة الشاذلي بن جديد	مشرفا ومقررا
أ د/ صالح جديد	أستاذ تعليم عالي	جامعة الشاذلي بن جديد	ممتحنا

السنة الجامعية: 2026/2025

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique ET Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

Université Chadli Bendjedid – El Tarf

كلية الآداب واللغات

Faculté des Lettres et des Langues

قسم اللغة والأدب العربي

Département de Langue et Littérature Arabes

الميدان: اللغة والأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب شعبي

مذكرة بعنوان:

صورة الآخر في أدب الرحلة "في مدينة الضباب ومدن أخرى" لعبد الله ركيبي ـأنموذجاـ

مذكر لنيل متطلبات شهادة الماستر في الأدب الشعبي

إعداد الطالبة:

- ✓ **عقيلة رزيق**

تحت إشراف الأستاذ:

- ❖ **د/ ماجدة بن عميرة**

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د/عبد الوهاب بويمة	أستاذ محاضر ـأـ	جامعة الشاذلي بن جديد	رئيسا
د/ ماجدة بن عميرة	أستاذة محاضرة ـأـ	جامعة الشاذلي بن جديد	مشرفا ومقررا
أ د/ صالح جديد	أستاذ تعليم عالي	جامعة الشاذلي بن جديد	ممتحنا

السنة الجامعية: 2026/2025

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله الذي وفقني بفضله وكرمه لإتمام هذا البحث، وأنار لي درب العلم والعلماء، وصلى الله وسلم على معلم البشرية هادياً ومبشراً ونذيراً.

تأكيداً على قيم الوفاء والاعتراف بالفضل، أتقدم بأسمى عبارات الشكر وخالص الامتنان إلى أستاذتي الفاضلة والمشرفة على هذا العمل **الأستاذة: بن عميرة ماجدة**، والتي لم تبخل عليّ يوماً بتوجيهاتها السديدة ونصائحها القيمة، وصبرها الطويل طوال فترة إنجاز هذه المذكرة. فلقد كانت خير سندٍ وعون، وقنديلًا أضاء لي مسارات البحث الأكاديمي، فجزاها الله عني كل خير ونفع بعلمها.

كما أتوجه بجزيل الشكر والتقدير إلى السادة الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الموقرة، لتفضلهم بقبول قراءة هذا العمل وتقويمه وإثرائه بملاحظاتهم العلمية القيمة.

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى كافة أساتذة **قسم اللغة والأدب العربي** ، **لاسيما** القائمين على **تخصص الأدب الشعبي**، الذين نهلنا من بحر علمهم ولم يدخروا جهداً في دعمنا وتوجيهنا طيلة سنوات الدراسة.

إلى كل هؤلاء، وإلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة من قريب أو من بعيد لإخراج هذا العمل إلى النور، أقول لكم: شكراً

الإهداء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تُذلل الصعاب، أهدي ثمرة هذا الجهد والنجاح بكل فخر واعتزاز إلى:

- **والدي العزيز** :سند حياتي وقدوتي، من أحمل اسمه بفخر، وبفضله ودعمه وتشجيعه المستمر صرتُ ما أنا عليه اليوم، حفظه الله وأدام عليه الصحة والعافية.
- **أمي الغالية** :نبع الحنان ومصدر الأمان، من سهرت الليالي لأجل راحتي، ودعواتها الطاهرة كانت النور الذي يُضيء دربي، أقرّ الله عيني برضاها.
- **عائلتي الكريمة** :بكل أفرادها، شكراً لكم على محبتكم الصادقة ودعمكم المتواصل الذي لم يغب عني طوال مسيرتي.
- **صديقتي الغالية "سامية" وقريبتي "الويزة"** رفيقتا الدرب والملجأ في الأوقات الصعبة، شكراً لوجودكما، تفهمكما، ودعمكما الوفي الذي كان زاداً لي في هذا الطريق.

إلى كل هؤلاء، أهدي هذا العمل بكل حب وامتنان، سائلاً الله العلي القدير أن يحفظكم جميعاً وأن يديم بيننا روابط الود والمحبة.

مقدمة

يعتبر أدب الرحلة من أعرق الأجناس الأدبية وأكثرها التصاقا بحياة الإنسان وتطلعه وسعيه إلى إكتشاف العالم وفهم الذات، فهو ليس مجرد إرتحال جغرافي بل هو إرتحال معرفي وثقافي تتجلى فيه جدلية الأنا والآخر، ومنذ الرحلات التراثية كرحلات ابن جبير وابن بطوطة إلى الرحلات الحديثة في عصر الإستعمار وما بعده ظلت صورة الآخر محورا مركزيا في تشكيل الخطاب الرحلي وعلامة فارقة على مستوى الوعي الحضاري للأمة.

وبعد صدمة الحداثة والإحتكاك المباشر بالغرب إكتست هذه القضية أبعادا أكثر تعقيدا في السياق العربي الحديث فأصبحت روما وباريس ولندن فضاءات للإختبار لا للفرجة وتحول الرحالة من شاهد محايد إلى مثقف مسائل حاملا هم أمته وتاريخها.

هنا تبرز أهمية أدب الرحلة الجزائري بوصفه حقلا خصبا لدراسة تمثلات الآخر وتجلياته خاصة في مرحلة ما بعد الإستقلال وفي هذا السياق تظهر تجربة الدكتور عبد الله ركيبي كنموذج رائد ومتميز في الأدب الجزائري الحديث تتجاوز مفهوم السياحة التقليدية القائمة على الفرجة نحو ما أسماه بالأدب السياحي القائم على النقد والتحليل واستنطاق الأمكنة محولا الحواضر العالمية إلى مرايا تعكس تطلعاته إلى الحداثة مع الحفاظ على الأصالة والهوية من خلال كتابه "في مدينة الضباب ومدن أخرى" الذي إخترناه كنموذج لعنوان بحثنا المتمثل في : صورة الآخر في أدب الرحلة في مدينة الضباب ومدن أخرى.

وذلك ضمن إشكالية تتبع تجليات صورة الآخر في المدونة وكيف استطاع الرحالة أن يبني تمثلاته حول المجتمع البريطاني من خلال ثنائية الإعجاب والنقد ومن هنا تتفرع عدة تساؤلات عن مفهوم أدب الرحلة وما هي خصائصها؟ وكيف تمثل الفكر العربي صورة الآخر عبر التاريخ؟ وكيف جسد الكاتب هذا الآخر في أبعاده الحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية؟ وما هي الآليات الفنية التي اعتمدها لتحويل مشاهداته إلى نص أدبي مكتمل الأركان؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات قسمنا بحثنا إلى فصلين:

فصل أول نظري: عنوناه بالمفاهيم والمصطلحات تطرقنا فيه إلى مفهوم الصورة ومفهوم الآخر وكذلك مفهوم أدب الرحلة متعرضين لتاريخ النشأة والخصائص والأنواع والدوافع.

فصل ثان تطبيقي: موسوم بتجليات صورة الآخر في كتاب مدينة الضباب ومدن أخرى تناولنا فيه التعريف بالكاتب وبالكتاب وعرجنا الى دراسة فضاء الرحلة وصورة الآخر الحضاري والاجتماعي والسياسي والديني مع عرض لأهم الآليات الفنية في بناء هذه الصورة، ثم عرضنا رسالة الكاتب عبد الله ركيبي في خلال تجربته الرحلية إلى بريطانيا، بعدها كانت الخاتمة تناولنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنا.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي نظرا لطبيعة الدراسة ولا سيما وأن الرحالة قد صوّر لنا الآخر الغربي بكل حالاته مقارنة بالجزائري.

كما اعتمدنا على مجموعة من المراجع العربية والمترجمة والمعاجم التي أسهمت في بناء هذه الدراسة، وقد صادفتنا مجموعة من العراقيل كأي باحث آخر أثناء عملية البحث كضيق الوقت وصعوبة العثور على المدونة الأصلية.

ولا يفوتنا في الأخير أن نتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذة المشرفة ماجدة بن عميرة على توصياتها وإرشاداتها لإكمال هذا العمل، وكل من ساعدنا من قريب أو بعيد في إنجاز بحثنا المتواضع.

الفصل الأول: المفاهيم والمصطلحات

تمهيد:

يشكل الجانب المفاهيمي والمصطلحي أساسا ضروريا لكل بحث ودراسة نقدية وأدبية، إذ يساعد على ضبط الرؤية المنهجية وتحديد الإطار النظري الذي تنطلق منه الدراسة، ولأن البحث في أدب الرحلة يرتبط بجملة من المفاهيم المتداخلة كالأدب والرحلة وصورة الآخر فإن الوقوف عند هذه المصطلحات يصبح خطوة منهجية لا غنى عنها لفهم طبيعة هذا الجنس وخصوصياته الفنية والمعرفية. ومن هذا المنطلق يسعى هذا الفصل إلى الوقوف عند أبرز المفاهيم والمصطلحات المتصلة بموضوع الدراسة من خلال التعريف بأدب الرحلة وبيان خصائصه والتطرق إلى مفهوم صورة الآخر.

المبحث الأول: صورة الآخر في أدب الرحلة.

يعد أدب الرحلة من أهم الأجناس الأدبية التي تتأسس بنيتها العميقة على جدلية اللقاء بين الأنا (الذات المرتحلة) والآخر (المختلف) ففي هذا النوع من الأدب لا يقتصر فعل الإرتحال على الانتقال الجغرافي والمكاني فحسب بل يتعداه ليكون رحلة معرفية وثقافية سيكولوجية تغادر فيها الذات فضاءها المألوف لتقتحم فضاء مجهولا، وهنا يبرز الآخر كعنصر محوري لا يكتمل نص الرحلة إلا به فهو المرآة التي يرى فيها الرحالة ذاته.

المطلب الأول: مفهوم الصورة لغة واصطلاحا

يعد مصطلح الصورة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية من أهم القضايا لدى النقاد من حيث مفهومها، وكذا بنيتها فمصطلح الصورة له امتداد في التراث العربي لذلك سنعرض مفهوم الصورة في اللغة والاصطلاح أولا ثم إلى مفاهيمها في الأدب العام والمقارن.

أولا: مفهوم الصورة في اللغة

ورد مفهوم الصورة لغة في مادة (ص و ر) في جملة من المعاجم العربية القديمة نذكر منها ما يلي: القاموس المحيط: مادة (ص و ر) الصورة الشكل والصفة والنوع والحقيقة، والجمع: صُوَر، صَوَّره فتصوَّر (الشيء) أي توهم والتصاوير تعني التماثيل. [1]

ففي لسان العرب: وردت لفظة الصورة على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة كذا وكذا أي صفته والمصّور من أسماء الله الحسنى وهو الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها، والتصاوير التماثيل. [2]

وجاء في المعجم الوسيط: صوَّره جعل له صورة مجسمة، وصوَّر الشيء أو الشخص: رسمه على الورق أو الحائط، والتصوير نقش صورة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائط. [3]

ثانيا: مفهوم الصورة اصطلاحا

عرفت الصورة بأنها: "إبداع ذهني صرف وهي لا يمكن أن تنبثق عن المقارنة وإنما تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقتين واقعيتين بعيدتين لم يدرك بينهما من علاقات سوى العقل. [4]

أي أنها إبداع ذهني يعتمد على الخيال، والعقل وحده هو الذي يدرك علاقتها فهي نقل إحساس الفنان تجاه الأشياء.

ومن خلال ما جاء في القواميس والمعاجم اللغوية وما ذكر من تعاريف للصورة يتضح قدرتها الهائلة على التعبير والإيحاء والتأثير بما يدور في قسماتها، كما أنها وسيلة تواصل بالغة الثراء لما تملكه من معان ورموز وآراء.

---

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة صور، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ج 1، ط 8، 2005، ص 427.

[2] ابن منظور: لسان العرب، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة مصر، ج4 ص 23.

[3] ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار العودة، مصر ط2 1989 ص 528.

[4] مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 1974، ص 45.

وقد حظيت الصورة في الأدب المقارن بإهتمام بالغ من قبل الباحثين والدارسين في الغرب وحتى عند العرب نظرا للدور الذي لعبته علاقات التأثير والتأثر بين الأمم والشعوب، ولقد أطلق على هذه الدراسة "علم الصورة" أو "الصورولوجيا" وهو من أحدث ميادين البحث في الأدب المقارن.

لذا يعد علم الصورة أحد الدراسات المقارنة التي تقوم:

بدراسة وتحليل ورصد الصورة الثقافية التي تكونها وتحملها الشعوب عن بعضها البعض في سياق شروط معينة. [1]

فمن خلال الصورة يتم دراسة ومناقشة الملامح والتمثلات التي يكونها مجتمع ما عن مجتمع آخر مختلف عنه.

وتعرفها ماجدة حمود بقولها: "هي كل صورة لا بد أن تنشأ عن وعي مهما كان صغيراً بالأنا مقابلاً للآخر، وهي تعبير أدبي يشير إلى تباعد الدلالات بين نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين وبذلك تكون الصورة .... جزءاً من الخيال الاجتماعي والفضاء الثقافي والأيديولوجي الذي تقع ضمنه". [2]

يتضح من قولها بأن دراسة الصورة انطلقت من كتابات الأنا عن الآخر وذلك أن الأنا يختلف جغرافياً عن الآخر مما يؤدي إلى تنوع الثقافات والمعارف وهذا يسهم في خلق تصورات ذهنية نشأت من خيال المجتمع الذي رسم صورة عن الأمم الأخرى كما لعبت الأفكار والمعتقدات دوراً هاماً في تجسيد الصورة.

أما دانيال هنري باجو فالصورولوجيا تعني: "التعبير الأدبي، وغيره عن فجوة كبيرة بين نظامي الواقع، وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموعة الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي التي تتخذ فينا ضمن التكوين الأدبي والاجتماعي." [3]

---

[1] عبد النبي ذاكر: الصورة الأنا والآخر، منشورات دار الأمان، مجلة سلسلة شرفات، العدد43، المغرب 2014 ص 26.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، (د ط)، 2000، ص 110.

[3] دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 1997، ص 84.

إذن فالصورة قائمة بين ثقافتين مختلفتين، فالذات هي التي تصنع هوية خاصة بها كما تعمد أيضاً إلى رسم صورة عن الآخر المخالف لها في الأفكار والمعتقدات وكذا البيئة الاجتماعية فموضوعها قائم على دراسة الآخر، وتسعى لتقصي أوجه الاختلاف التي تفصل الذات عن الغير.

من خلال ما سبق ذكره نرى أن الصورة مثلت عنصراً حيوياً في حياة الإنسان فهي فعل ثقافة وممارسة للتعبير عن الهوية والغيرية في نفس الوقت فهي تنقل الطقوس الاجتماعية والتمثلات الثقافية التي ميزت الذات عن الآخر.

المطلب الثاني: مفهوم الآخر لغة واصطلاحا

أولا: الآخر في اللغة

كلمة الآخر في المعاجم العربية إلى الجذر اللغوي (أ خ ر) وتدل في مجمل معانيها على التأخر والمغايرة، وما يقابل الأول أو يختلف عن الشيء وقد تعددت تعريفات المعاجم والقواميس لهذا اللفظ نذكر منها:

ما أورده ابن منظور في لسانه أن الآخر يحمل معنى المغايرة والتأخير الزمني أو المكاني حيث يقول: "والآخر بفتح الخاء المغاير للأوّل .... والآخر خلاف الأوّل ... والتأخر ضد التقدم"[1]

وهو ما ذهب إليه أيضا الفيروز أبادي في قاموسه الدلالة على التباين والتضاد مع الأول فيقول: "الآخر ككسر: خلاف الأول، ومؤنثه الآخرة، والآخر بفتح الخاء: غيره". [2]

وجاء في المعجم الوسيط لبيان التفرقة بين الشيء وما سواه "الآخر: أحد الشيئين ... والآخر: المغاير، تقول: جاء رجل آخر». [3]

[1] ابن منظور: لسان العرب، المرجع السابق، ج4، ص 11.

[2] مجد الدين الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المرجع السابق، ص 380.

[3] ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص 10.

ثانياً: الآخر اصطلاحاً

أما المفهوم الاصطلاحي فقد تطور هو الآخر ليتجاوز الدلالة المعجمية البسيطة ليصبح مصطلحاً مركزياً في الفلسفة وعلم الاجتماع والدراسات الثقافية وخاصة في النقد الموجه لأدب الرحلة ويعتبر في جوهره عن كل ما يقع خارج نطاق الأنا أو الذات المركزية وفيما يلي أبرز التعاريف الاصطلاحية.

يعرف الآخر في الحقل الفلسفي بأنه الكيان المستقل الذي تدرك الذات وجودها من خلاله فهو "الأنا الذي ليس أنا" وهو المقابل الموضوعي الذي يشكل وعي الذات بحدودها [1]

أما في الدراسات الثقافية وأدب الرحلة فالآخر هو الفضاء البشري والثقافي المختلف الذي تصطدم به الذات الرحالة أثناء انتقالها، وهو يمثل الهوية المغايرة عرقياً أو دينياً أو جغرافياً والتي يتم رصدها وتسجيل تفاصيلها وإعادة صياغتها في نصوص أدبية وفقاً لثقافة الكاتب ومرجعياته المركزية. [2]

وفي الدراسات الاستشراقية وما بعد الكولونيالية يعد الآخر بناء متخيلاً خاصة في رحلات الغربيين إلى الشرق، لا كحقيقة موضوعية، بل كصناعة نصية وبناء متخيل، الآخر هنا هو نقيض الأنا حيث تمنح الأنا المركزية لنفسها صفات العقلانية والتحضر بينما تسقط على الآخر صفات العقلانية والتحضر من أجل تعريفه والسيطرة عليه. [3]

وفي الحقل السوسيولوجي يعد الآخر الغريب الذي ينتمي إلى نسق ثقافي واجتماعي مغاير، إن إدراك هذا الآخر يرتبط بوعي الجماعة بحدود هويتها -فهو الكيان الذي لا يشارك الأنا عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها، وفي أدب الرحلة يمثل موضوعاً للدهشة والاستكشاف ومادة خصبة للمقارنة المستمرة مع مجتمع الرحالة الأصلي. [4]

---

[1] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط 2، 1982، ص16.

[2] عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التكوين والتمركز حول الذات المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 1997، ص 45.

[3] ادوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط 5، 1995، ص 65.

[4] الطاهر لبيب: صورة الآخر، الغرب في التراث العربي، مركز الدراسات، الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1999، ص 22.

وفي سياق التفاعل الحضاري يعرف الآخر كما في رحلات النهضة العربية إلى أوروبا بأنه الفضاء المتقدم الذي يحدث صدمة حضارية للذات لا يظهر الآخر هنا كمجرد غريب بل كنموذج للتقدم يعري واقع الأنا ويدفعها للتساؤل والنقد الذاتي فيصبح الآخر مرجعية لقياس مدى التأخر والتقدم. [1]

المطلب الثالث: صورة الآخر في الدراسات النقدية

حظيت صورة الآخر باهتمام واسع في الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة وتحديداً ضمن حقل علم الصورة المقارن والنقد الثقافي ومقاربات ما بعد الكولونيالية ولم يعد ينظر إلى صورة الآخر في النصوص الأدبية الرحلية باعتبارها تسجيلاً محايداً للواقع بل بوصفها بنية معقدة تتداخل فيها الأيديولوجيا والمتخيل ومركزية الذات.

تؤكد الدراسات النقدية أن رسم صورة الآخر في الأدب لا يهدف دائماً إلى فهم الآخر ذاته بل ينطلق غالباً من رغبة الذات في تعريف نفسها، فالآخر يستخدم كمرآة تعكس نقائض الأنا أو تفوقها. [2]

كما يركز علم الصورة في دراسته للأدب على كيفية إنتاج النص لصورة نمطية جاهزة عن الأمم والشعوب، ويرى النقاد أن الرحالة غالباً ما يسافر حاملاً معه أرشيفاً كاملاً من التخيلات والأحكام المسبقة حيث يتغلب المتخيل الثقافي على الواقع الموضوعي. [3]

وتبرز الدراسات النقدية الحديثة أن صورة الآخر في نص الرحلة لا تتشكل فقط من خلال المشاهدة المباشرة والاحتكاك بل تخضع لسطوة التناص والمقروء السابق، وعندما يصطدم فإنه غالباً ما يسقط هذه النصوص الجاهزة على الواقع مما يجعل الآخر في النص نتاجاً لتفاعل النصوص السابقة أكثر من كونه انعكاساً للواقع الموضوعي. [4]

---

[1] علي أومليل: في شرعية الاختلاف، دار الطليعة، لبنان، ط 1، 1991، ص 4.

[2] محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط 1، 2007، 42.

[3] أحمد طعمة حلبي: صورة الغرب في الرواية العربية، مكتبة مدبولي، مصر، ط 1، 2007، ص 28.

[4] عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، لبنان، ط 2، 1982، ص 55.

كما تركز بعض المقاربات النقدية المعاصرة على رصد العنف الرمزي في أدب الرحلة والمتمثل في إقصاء صوت الآخر، ويرسم الآخر غالباً ككائن صامت أو كخلفية مشهدية سلبية تبرز بطولة الرحالة أو تفوقه المعرفي يحتكر فيه الكاتب سلطة الوصف والحكم.[1]

وهكذا يتضح أن صورة الآخر وعلى حد تعبير إدوارد سعيد لم تعد ترفا فكريا وهامشياً في الدراسات النقدية بل غدت محوراً مركزياً لفهم الذات قبل الآخر فمنذ الجذور الأولى الفطرية للرحلة والدهشة الأولى أمام الغريب إلى النصوص التراثية التي وثقت الآخر الديني والمذهبي ووصولاً إلى أدب الرحلة الحديث الذي واجه الآخر الكولونيالي والحداثي ظلت هذه الصورة مرآة مزدوجة تكشف ملامح ما نراه وتفضح في الوقت نفسه مخاوفنا وأوهامنا وتمثلاتنا، لقد أثبتت الدراسات النقدية المعاصرة أن صورة الآخر لا يقرأ بمعزل عن شروط إنتاجها فهي محكومة بالسياق التاريخي والسلطة المعرفية وغاية الرحالة .

المطلب الرابع: تمثلات الآخر في الأدب العربي

صورة الآخر في الأدب العربي لم تكن صورة ثابتة أو أحادية بل خضعت لتحولات عميقة ارتبطت بالسياقات التاريخية والسياسية والحضارية التي حكمت علاقة الأنا العربية الإسلامية بغيرها من الأمم، وقد تنوعت تمثلات هذا الآخر لتتراوح بين الآخر العجائبي في العصور القديمة والآخر المتفوق في عصر النهضة وصولاً إلى الآخر الكولونيالي المستعمر في العصر الحديث.

ففي المدونة السردية الرحلية العربية القديمة تمثل الآخر في الغالب مادة للدهشة وموضوعاً للعجائبية، "وتركز التمثلات حول رصد العادات الغريبة والطقوس الوثنية والمفارقات المناخية والجغرافية حيث كان الهدف الأساسي هو إمتاع القارئ وإشباع فضوله اتجاه الأقاصي المجهولة مع التأكيد الضمني على أفضلية الذات ومركزتيها"[2]

كما شهدت مرحلة النهضة تحولاً جذرياً في تمثلات الآخر وذلك إثر صدمة الاحتكاك المباشر مع الغرب الذي ظهر كنموذج للتقدم العلمي والتنظيم المدني والتطور السياسي.

---

[1] خليل الشيخ: باريس في الأدب العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط 1، 1998، ص 134.

[2] عبد النبي ذاكر: قضايا أدب الرحلة، مطبعة النجاح، المغرب، ط 1، 1998، ص 75.

فتحولت صورة الآخر هنا من العجائبي إلى المتفوق حضارياً وأصبحت الرحلة إلى بلاد الآخر رحلة للبحث عن أسباب النهضة ومقارنة تخلف البعض مظاهر الحضارة الغربية.

ومع مطلع القرن العشرين ودخول العالم العربي تحت وطأة الاستعمار تمثل الآخر بوصفه المستعمر الذي يهدد الهوية ويمارس استلاباً ثقافياً وحضاريا ، أصبح اللقاء بالآخر لقاءً إشكالياً تتداخل فيه رغبة الأنا في التحرر والانعتاق مع شعورها بالنقص والانجذاب نحو ثقافة الآخر في آن واحد.[1]

كما تأثرت صورة الآخر في الأدب العربي خلال فترتي الخمسينات والسبعينات بالاستقطاب الأيديولوجي العالمي حيث لم يعد الغرب كتلة واحدة بل انقسم إلى آخر رأسمالي يمثل الجشع المادي والتهديد الاستعماري وآخر اشتراكي ينظر إليه كحليف في قضايا التحرر ، حيث تحول الآخر إلى رمز سياسي أو طبقي يمرر الكاتب من خلاله موقفه الأيديولوجي والفكري. [2]

ومع تنامي الاهتمام بأدب الخيال العلمي برز تمثيل جديد يتمحور حول الآخر التقني يعكس هذا الآخر قلق الأنا العربية المزدوج. قلق من التخلف العلمي والعجز عن مسايرة الركب الحضاري وقلق وجودي من فقدان الإنسانية والروحانية في ظل هيمنة الآلة ويستخدم هذا التمثيل لمساءلة القيم الأخلاقية وحدود العلم ومستقبل الهوية البشرية. [3]

من خلال ما سبق يمكن القول إن تمثلات الآخر في الأدب العربي ليست صورة ثابتة أو أحادية بل هي جدلية متحركة تشكلت عبر التاريخ بتأثير الدين والسياسة والمعرفة والاستعمار والحداثة كما كشف أدب الرحلة أن صورة الآخر هي في جوهرها حوار مع الذات تعبر عن قلق الذات العربية عبر أسئلتها المؤجلة حول التقدم والهوية والسلطة، لذلك فإن هذه التمثلات لم تكن بريئة أبداً بل محكومة بسياق الرائي وغايته وموقعه من العالم.

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات في الأدب العربي المقارن، المرجع السابق، ص 65.

[2] غالي شكري: الرواية العربية في رحلة العذاب، دار العودة، لبنان، ط 1، 1981، ص 120.

[3] طالب عمران: الخيال العلمي في الأدب العربي، دار الفكر، سوريا، ط 1، 2002، ص 115

المبحث الثاني: أدب الرحلة

ترتبط الرحلة بنزوع فطري نحو الكشف والمغامرة والبحث عن المجهول، فهي قديمة قدم الإنسان نفسه حيث كانت منذ الأزل وسيلة للتبادل الحضاري والتجاري والديني لكنها عندما دخلت حيز التدوين تحولت من فعل فيزيائي إلى فعل أدبي يهدف إلى إفادة القارئ وإمتاعه من خلال نقل تجربة السفر رؤية الآخر في عقر داره.

والحديث عن أدب الرحلة يستوجب في البداية تحديد مفهوم الرحلة عبر مستوياتها اللغوية والاصطلاحية وتتبع تطورها التاريخي الذي جعلها مصدراً غنياً للجغرافي والمؤرخ وعالم الاجتماع و..... إلخ.

المطلب الأول: تعريف أدب الرحلة لغة وإصطلاحا

بعد تعريف أدب الرحلة خطوة منهجية تتطلب الغوص في بطون المعاجم اللغوية ثم التنظير النقدي الحديث وذلك رغبة منا في الإحاطة بكل الأبعاد التي يحملها هذا المصطلح.

أولاً: المفهوم اللغوي:

تضرب دلالة كلمة رحلة بجذورها في أعماق اللغة العربية حول الانتقال والحركة وشد الأمتعة للمسير وقد أجمع اللغويون على أن المادة الثلاثية (ر ح ل) تحمل معانٍ مادية مرتبطة بأدوات السفر ومعانٍ معنوية مرتبطة بفعل الارتحال نفسه.

يشير ابن منظور في معجمه إلى: أن "الرَّحْلَ" هو مركب البعير والناقة والجمع "أَرْحُلٌ" و"رِحَالٌ "وهو من مراكب الرجال دون النساء بينما تسمى "الرحال"، ما هو أكبر من الشَّرْجِ ويغشى بالجلود ويكون للخيل والنجائب كما يذكر أن "الرَّحْلَ" هو أيضاً مسكن الرجل وما يصاحبه من أثاث ومن الحديث النبوي، "إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرِّحال"، أي في المساكن والمنازل. [1]

[1] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مجلد 5، ص 193-194.

أما من حيث الفعل فيقال "رحل الرجل رحلاً" إذا سار وانتقل من مكان إلى آخر، وارتحله إذا جعل عليه الرَّحْلَ وركبه.

وتفرق المعاجم بين "الرِّحْلة" بالكسر و"الرُّحْلة" بالضم فالرِّحلة هي الارتحال والمسير أو السفرة الواحدة، بينما الرُّحلة هي الوجهة والمقصد الذي يرحل إليه المرء.

كما ورد في المعجم الوسيط أن الرحلة هي "الإرتحال وتجمع على رِحَل ومنه قوله تعالى في سورة قريش: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [1]

وجاء في القاموس المحيط: ارتحل البعير: سار ومضى والقوم عن المكان: انتقلوا. [2]

من خلال هذه التتبعات اللغوية يظهر أن الرحلة في المتخيل العربي مرتبطة بالقوة والقدرة على السير الطويل حيث يوصف البعير بأنه ذو رِحْلَةٍ إذا كان قوياً على المسير، كما ترتبط بالعلم والمكانة فيقال عالم رحلة أي يرتحل إليه الناس من الآفاق لغزارة علمه. [3]

ومهما تكن هذه الاستهلالات اللغوية فإن الرحلة والرحيل والإرتحال والترحل تفيد إنتقالاً في المكان يكون مؤقتاً محدوداً زمانه.

ثانياً: المفهوم الإصطلاحي

انتقل مصطلح الرحلة من معناه الحركي المادي إلى المعنى الإصطلاحي الذي يشير إلى نوع من الكتابة النثرية التي تتزاوج بين التوثيق والإبداع، لذا فإن محاولة الوقوف عند مفهوم إصطلاحي جامع لأدب الرحلة أضحى أمراً عسيراً نظراً لتعدد المفاهيم التي حد في طرحها المهتمن.

وتعرف الموسوعة العربية العالمية أدب الرحلة بأنه: "النوع الأدبي الذي يدوّن فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلته قام بها لأحد البلاد ويسرد مراحلها مرحلة مرحلة. [4]

---

[1] مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004، ص 337.

[2] الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص 519.

[3] معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص 337.

[4] الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال، الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1999، مجلد 1، ص 150.

وقد قدّم النقاد تعريفات متعددة تحاول الإحاطة بحدود هذا الجنس الأدبي ومن أبرزها:

ــ يرى شوقي ضيف: أن أدب الرحلة هو خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي وهي تهمة قصوره في فن القصة معتبراً أن الرحلة تعبير عن فطرة الإنسان الذي ولد راحلاً سواء كان رحيلاً واقعياً أو متخيلاً. [1]

ــ أما أنور لوقا فيعرفها بأنها مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول إنطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق. [2]

ــ ومن جهة أخرى يركز حسني محمود على الجانب الواقعي واصفاً إياه بـ "أدب الرحلة الواقعية وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم وبدوّن وصفاً له ويسجّل فيه مشاهداته وانطباعاته بدقة وبصدق وبجمال أسلوب"[3]

ــ في حين يذهب محمد خاتمي إلى وضع تعريف شبه شامل يرى فيه الرحلة "خطاباً تنشئه ذات مركزية هي ذات الرحالة، تحكي فيه أحداث سفر عاشته، وتصف الأماكن المزورة، والأشخاص الذين لقيتهم، وغايتها من هذا الجنس إفادة القارئ وإمتاعه"[4]

وعليه من خلال هذه التعريفات يتضح لنا أن الرحلة تقوم ركائز أساسية هي الذات الرحالة كمركز للرؤية والموضوع والبلد المزار والمشاهدات والخطاب في الصياغة الأدبية التي تمنح التجربة خلودها.

فالرحلة بهذا المعنى هي عملية تلفيظ لفعل الإنتقال حيث يختلف خطاب الرحلة عن الخطابات الأخرى بقدرته على امتصاص الأجناس الأخرى وتوظيفها لخدمة النص الرحلي وبالتالي فإن أدب الرحلة هو الأدب الذي يجمع هذه الكتابات وتدوين كل المشاهدات التي عاينها الرحالة في انتقالاته من مكان لآخر.

---

[1] شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ص 362.

[2] أنور لوقا: أدب الرحلات، دار الهلال، القاهرة مصر، ص 10.

[3] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الأندلس، القاهرة، 1983، ص 15.

[4] محمد حاتمي: الرحلة - المفهوم والمكونات، مجلة عالم الفكر، الكويت، 2003، ع 3، ص 81.

المطلب الثاني: خصائص أدب الرحلة

يتميز هذا الأدب عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى بوجود مجموعة من الخصائص، تجلت فيما ورد عن أدباء الرحلات من مؤلفات كتبوها عند زيارتهم لبعض البلدان ومن أهم هذه الخصائص الفنية والموضوعية وغيرها التي تمنحه هويته المنفتحة نذكر ما يلي:

أولاً: الخصائص الفنية

1ـ الذاتية وحضور الأنا: تحتل ذات الرحالة المركز في الحل والترحال فالنص ليس تقريراً موضوعياً جافاً بل هو انعكاس لرؤية هذه الذات وانطباعاتها الشخصية.

2ـ الحكي بضمير المتكلم: يعتمد النص الرحلي غالباً على ضمير المتكلم (مفرداً أو جمعاً) وهو ما يمنحه صبغة واقعية ويوثق الصلة بين القارئ والكاتب.

وهذا ما نجده عند الكاتب عبد الله ركيبي «المدن مثل الأشخاص منها ما تحبه ونشعر بالألفة معه ومنها ما لا نتعاطف معه ومنها ما نعجز عن تحديد شعورنا نحوه بالضبط!» [1]

3ـ دورية الخطاب وسرعة الإيقاع: يبدأ السرد من نقطة الإنطلاق مروراً بالمحطات المختلفة ووصولاً إلى العودة ويتميّز الأسلوب بالتنقل السريع بين الوصف والحكي لإبعاد الملل عن القارئ.

4ـ المزاوجة بين السرد والوصف: يعد الوصف أداة أساسية في الرحلة حيث يتطلب دقة ملاحظة لتصوير الموصوف حتى كأن القارئ يراه نصب عينيه بينما يعمل السرد على نقل تعاقب الأحداث.

فمثلاً السياحة الأدبية عند ركيبي يطبعها حضور الماضي انطلاقاً من الفعل الحاضر، إنه لا يكتفي بالعين وما ترى إنما يستعين بالذاكرة وما تستعيد. [2]

ثانياً: تعدد المضامين وتداخل الخطابات

يعد أدب الرحلة جنساً جامعاً يشتمل على معارف متنوعة دينية وتاريخية وجغرافية كما تتداخل فيه خطابات أدبية أخرى مثل:

---

[1] عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، سياحة أدبية، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط 1، 2003، ص 10.

[2] يوسف وغليسي: في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2009، ص 261.

ـــ الشعر: حيث تتضمن نصوص الرحالة قصائد لوصف مشاعره أو لتعزيز الوصف الجمالي.

ـــ الحكاية والقصة: تبزر من خلال المواقف الطريفة أو العجائبية التي يصادفها الرحالة.

ـــ الرسالة والحوار: يوظف الكاتب الحوار لنقل لغة أهل البلاد المزورة وتفاعلهم معه.

ثالثاً: الخصائص التوثيقية

إلى جانب الخصائص الفنية والموضوعية يتمتع أدب الرحلة بخصائص تجعله حقلاً معرفياً مستقلاً بذاته ومن بينها

ـــ الصدق الفني والواقعية: يميل أدب الرحلة في جوهره إلى نقل الواقع كما شاهده الرحالة وعاشه مما يجعله وثيقة تاريخية جغرافية واجتماعية سوسيوثقافية بالغة الأهمية.

فهو يسجل تفاصيل الحياة اليومية والعادات والتقاليد والنظم السياسية والإقتصادية وحتى العمرانية والأزياء مما يجعله مصدراً أصيلاً لا غنى عنه للمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا لدراسة الشعوب والمجتمعات في حقبة زمنية معينة. [1]

من خلال ما سبق ذكره نخلص إلى أن أدب الرحلة ينقل المعارف والخبرات الإنسانية والثقافية بأسلوب أدبي ممتع وأهم ما ميز هذا الفن الصدق في نقل الوقائع والدقة في الوصف والإعتماد على السرد والتشويق إضافة إلى تصوير الطبيعة والعادات والتقاليد والحياة الإجتماعية للشعوب المختلفة مما يوسع آفاق القارئ فكرياً وثقافياً.

المطلب الثالث: نشأة أدب الرحلة وتطورها

1ـــ النشأة:

تتصل الرحلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، فهي فعل فطري نابع من غريزة حب الإستطلاع واكتشاف المجهول ويشير الباحثون إلى أن أول رحلة في تاريخ البشرية هي رحلة سيدنا آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض ومنذ ذلك الحين لم تتوقف رحلات البشر، "وتؤكد الأدلة النقلية في الكتب السماوية استمرار هذا النشاط عبر رحلات الأنبياء فرحلة نوح في السفينة، ورحلات

[1] شوقي ضيف: الرحلات. دار المعارف، القاهرة مصر، ط 4، 1955، ص 05.

إبراهيم وموسى عليهم السلام فتمثل نماذج أولية للإرتحال الهادف الذي يجمع بين الهجرة والبحث عن العلم والعبرة"[1]

كما سجلت الحضارات القديمة رحلات كبرى فملوك مصر القديمة ارتحلوا إلى آسيا، والملكة حتشبسوت جابت بلاد الصومال، بينما خاض الفينيقيون غمار المحيطات ووصلوا إلى جزر بريطانيا كما ترك المؤرخ الإغريقي هيرودوت في كتابه "التاريخ" وصفاً مفصلاً لمصر وفينيقيا وآشور معتبراً أن المشاهدة المباشرة هي المصدر الأساسي للمعرفة، هذه الرحلات وضعت اللبنات الأولى بما سيصبح لاحقاً أدب الرحلة حيث بدأ الإنسان بدوّن ما يراه من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات.

في العصر الجاهلي بدأ أدب الرحلة في التراث العربي مبعثراً وغير مدون بشكل مستقل، حيث كان يظهر ضمن أشعار العرب التي تصف الإرتحال في الصحراء ووصف الناقة وتتبع آثار الديار ومع ظهور الإسلام اكتسبت الرحلة أبعاداً دينية وعلمية عميقة فالحث على الحج وطلب العلم والجهاد والهجرة جعل من الإرتحال واجب ديني وضرورة حضارية.

أما البداية الفعلية لنضج أدب الرحلة العربي فكان في القرن الثالث هجري (التاسع ميلادي) مع حركة التدوين بدأت تتسع لتشمل "المسالك والممالك"، ومن أقدم النماذج المدونة رحلة سلام الترجمان إلى جبال القوقاز للبحث عن سد يأجوج ومأجوج بتكليف الخليفة الواثق، في هذه المرحلة كانت الرحلة تمتزج بالكتب الجغرافية والتاريخية كما هو الحال عند المسعودي في "مروج الذهب" والمقدسي في "أحسن التقاسيم".[2]

وفي الفترة الممتدة من القرن السادس إلى الثامن هجري وصل أدب الرحلة إلى ذروة تألقه الفني، واكتملت الملامح الأساسية لهذا الفن على يد ابن جبير الأندلسي حيث تميز بأسلوب المذكرات اليومية الدقيقة مركزاً على وصف أحوال المشرق الإسلامي مبتعداً عن الغرائب الخرافية.

وتوّج ابن بطوطة هذا المسار بكتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" الذي يعد الكتاب الأكثر إمتاعاً وجاذبية في التراث الرحلي، حيث حوّل الرحلة إلى عمل فني يمزج بين

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط 2، 2002، ص 24.
[2] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، المرجع السابق، ص 12.

الواقعية والحس القصصي المشوّق لقدرته على السرد القصصي ووصف حياة الشعوب وتفاصيل معيشتهم.

وفي هذه المرحلة نوّه ابن خلدون في مقدمته بأهمية الرحلة لطلب العلم واكتساب الفوائد بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال [1]

أما الفترة الممتدة من القرن التاسع هجري حتى بداية النهضة العربية شهدت تراجعاً في حركة التأليف الرحلي فيما سمي "بعصر المفازة" ويعزى ذلك إلى تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية للعرب، مما أدى إلى قلة الرحلات، ومع ذلك استمرت بعض الرحلات الحجازية التي تصف الطريق إلى الحج والمناسك بأسلوب تقليدي يميل أحياناً إلى التنميق اللفظي والسجع. [2]

وفي مطلع القرن التاسع عشر شهد أدب الرحلة عودة قوية ولكن بأهداف ومناهج مختلفة نتيجة الإحتكاك بالحضارة الغربية وأصبحت الرحلة وسيلة لاكتشاف الآخر ومحاولة نقل المعارف والعلوم.

وتوالت بعد ذلك الرحلات التي جسدت صدمة الحداثة وصورة الآخر الغربي مثل كتابات أحمد فارس الشدياق في "الواسطة في أخبار مالطة" وكتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق" وكذلك أحمد زكي باشا في "السفر إلى المؤتمر" وحسين فوزي في "السندباد العصري"، وفي هذا العصر تداخلت الرحلة مع الفنون القصصية والروائية وظهرت الرحلة الثقافية التي تهدف إلى الحوار الحضاري وتفكيك الصور النمطية المتبادلة.

وعليه فإن أدب الرحلة لم يظهر كجنس مستقل فجأة بل مر بمراحل تطور بدأت من الشفاهية ووصلت إلى قمة التدوين في العصور الإسلامية الزاهرة متأثرة بالتحولات السياسية والجغرافية التي شهدتها الأمة.

---

[1] شوقي ضيف: الرحلة، المرجع السابق، ص 125.

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريس، مؤسسة هنداوي، القاهرة مصر،1934، ص 10.

المطلب الرابع: أنواعها ودوافعها

أولا: الأنواع

يحمل أدب الرحلة خصائص أدبية ومعرفية متنوعة على مستوى الشكل والمضمون، فهو من الفنون التي لا تخضع لمعايير الأجناس الأدبية الأخرى، لذا لا نجده يلتزم ببنية محددة تكشف عن ماهيته، فهو منفتح على كل الدراسات والأشكال الأدبية الأخرى ويتفرّد بأنواعه المتعددة ومن الأنواع نذكر ما يلي:

1_الرحلة الدينية: ارتبط هذا النوع إرتباطاً وثيقاً بالعامل الديني وتلبية نداء شعيرة الحج وكذلك لطلب العلم والحديث، وتميزت هذه الرحلات قديماً بتسجيل دقيق لمراحل الطريق من نقطة الإنطلاق وحتى الوصول إلى البقاع المقدسة (مكة، المدينة، القدس) ولم تقتصر أهميتها على الوصف الطبوغرافي لمسالك الصحراء أو البحر بل شكلت وثائق سوسيوتاريخية، حيث رصد الرحالة حالة الأمن وطبيعة الإقتصاد، وكذلك الأوضاع الإجتماعية للبلدان التي عبروها. كما اهتموا بتوثيق اللقاءات الروحية والفكرية مع علماء الدين والفقهاء في الحجاز والشام ومصر.

وتعد الرحلات الحجازية المغاربية والأندلسية كرحلة ابن بطوطة ورحلة العياشي وكذا ابن جبير من أبرز تجليات هذا النوع حيث كانت جسراً للتواصل الديني والثقافي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه. (1)

وكان الغرض من هذه الرحلات تطهير النفس ووصف المقدسات وتلبية قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ (2) وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحة الأنبياء والأولياء الصالحين، والرحلة لنشر الدين وتعليم الإسلام.

(1) محمد المنوني: تاريخ الرحلة الحجازية المغاربية، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 56.

(2) القرآن الكريم: سورة الحج، الآية 27.

2_الرحلة الدبلوماسية:

ظهر هذا النوع من الرحلات منذ ظهور الإسلام ويضم كلاً من الرحلات التكليفية والإدارية والسفارية، بدافع التجسس والإستطلاع ومعرفة الأخبار، أو تلبية لطلب الحكام في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، فهي نصوص سردية وتوثيقية دونها السفراء والمبعوثون السياسيون والكتاب المرافقون للبعثات الدبلوماسية الرسمية، وترتكز هذه الرحلات بشكل مكثف على رصد أنظمة الحكم، المؤسسات البرلمانية، الهياكل الإدارية، التنظيمات العسكرية، والطبائع الإجتماعية والأخلاقية للآخر.

تكتسي الرحلة السفارية طابعاً حذراً ويقظاً حيث توازن بين صدمة الإنبهار بمدينة الآخر المتقدمة وضرورة الحفاظ على الهوية والمرجعية الذاتية للرحالة.

فالرحلة السفارية هي "وليدة التقدم الحضاري ونشوء الدول التي كانت ترسل مندوبين رسميين نيابة عنها، من أجل التفاوض فيما بينها، وكان هذا التفاوض يطول يشمل مجالات شتى"[1]

ومن أشهر هذه الرحلات "رحلة سلام الترجمان (227هـ - 841م) والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله قصد معرفة حقيقة سد الصين.

3_ الرحلة العلمية:

وهي من أكثر الرحلات شيوعاً وأشهرها، ويتعدد هذا النوع بتعدد أغراضه ومقاصده، ولقد لجأ إليها الرحالة بغية طلب العلم وملاقاة العلماء والفقهاء ومحاورتهم والإستفادة منهم وقد جاء في كتاب الرحلات للشيخ محمد الخضر حسين الذي جاب أقطار المشرق العربي "إنَّ الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقي إلّا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية" منها: طلب العلم.....ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يعد في وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو والبلاغة، ومن هذه الأغراض: الإعتبار بأحوال الأمم الماضية وأحوال الأمم الحاضرة، والتخلص من دار البغي والضلال إلى الإقامة في دار العدل والهدية. [2]

---

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع هجري)، مكتبة الوفاء، القاهرة، مصر، ط 1، 1995، ص33.

[2] محمد الخضر حسين: الرحلات، مطبعة التعاونية، دمشق، سوريا، 1976، ص 7.

بمعنى أن الإسلام دعى إلى العمل وطلب العلم والإعتبار بالأمم القديمة والحديثة، والعمل على العدل والهداية..

وأشهر رحلة علمية هي رحلة النبي موسى عليه السلام مع الخضر بأمر من الله تعالى وتوجيهه قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)﴾ [1]

كما تميز هذا النوع من الرحلات بالتركيز على المشهد الثقافي والفكري حيث يوثق الرحالة المجالس العلمية والمناظرات الفقهية والأدبية وسير العلماء الذين التقى بهم مما يجعل هذه المدونات بمثابة فهارس وتراجم دقيقة للحركة الفكرية وشبكات التواصل العلمي.

4_الرحلة الجغرافية والإستكشافية:

ارتبط هذا النوع بالدوافع الإستكشافية البحتة أو المهام التجارية أو التكليفات الرسمية من الخلفاء والحكام لرسم الخرائط وتوثيق التضاريس (ما عرف لاحقاً بكتب المسالك والممالك) يركز الرحالة في هذا النوع من الرحلات على الجانب الكارتوغرافي والعمراني، واصفاً الجبال والأنهار والمناخ والطرق التجارية والحدود الفاصلة بين الأقاليم.

علاوة على ذلك تضمنت هذه الرحلات بذوراً مبكرة للإثنوغرافيا عبر وصف العادات والتقاليد والألبسة والمعتقدات ولغات الشعوب القاطنة في المناطق النائية والمجهولة، مما قدّم مادة دسمة لعلماء الجغرافيا والتاريخ والأنثروبولوجيا اللاحقين. [2]

5_الرحلة الثقافية أو السياحة الأدبية:

يمثل هذا النوع من الرحلات التطور الحديث والمعاصر لأدب الرحلة فيه يتراجع الوصف الجغرافي الخارجي أو التوثيق الجاف لصالح التأمل الذاتي والإنطباعات النفسية والمقاربات الجمالية

[1] القرآن الكريم: سورة الكهف، (64 – 66).

[2] اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، 1957، ص 70.

والفلسفية، فالرحالة لا يزور المكان كمستكشف جغرافي مبعوث وإنما كمثقف هو يسعى للحوار الحضاري ومقارنة الثقافات.

لقد سعى بعض الرحالة إلى البحث عن الحرية والإجتياز المكاني حيث المهم هو السفر لا المكان الذي يرتحل إليه فالدافع القابع وراء القيام برحلته التمتّع بالحياة والوصول إلى مواطن الجمال في كل مكان والرغبة في اكتشاف مالم تره العين، فيقوم الرحالة بالسفر بمحض إرادته دون دافع خارج عن حدود الذات. [1]

من هنا جاءت بعض الرحلات لارتياد الأماكن ووجوب الآفاق والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز مضمون الحج أو المهام الرسمية ليجول الرحالة في البلاد التي طالتها يد الإسلام وشاع فيها الأمن والاستقرار رغبة منه في معرفة أشياء كثيرة، لذا فقد تجتمع عدة أسباب لرحلة ما كما هو عند ابن بطوطة الذي زار أصقاع عديدة بدافع الرغبة التي تقرّها الذات وحب الإطلاع على الحضارات الأخرى، كما استخدم عبد الله ركيبي مصطلح "سياحة أدبية" ليؤكد على أن الرحلة لم تعد مجرّد سرد لأحداث التنقل بل أصبحت فضاءً نصياً وجمالياً عالياً.

6_الرحلة العجائبية:(رحلة العجائب والغرائب)

تتداخل في هذه الرحلات الحقائق الجغرافية مع الخيال المفرط والغرائبية حيث يهتم برصد الظواهر الغريبة، والأساطير، وحكايات الشعوب، والمخلوقات العجيبة التي يصادفها الرحالة في أقاصي الأرض المجهولة، وقد كانت تلبي شغف المتلقي القديم بمعرفة المجهول والمدهش، فيميل الرحالة إلى تضخيم الأحداث لإثارة دهشة القارئ ومن أبرز أمثلتها المدونات التي نقلت أخبار البحارة والتجار مثل "أخبار الصين والهند" للسيرافي وما تضمنته بعض الفصول في رحلات القزويني وابن بطوطة من أخبار خوارق العادات. [2]

[1] حسنين نصار: أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، ط 1، 1991، ص 5.

[2] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي: التجنيس، آليات الكتابة خطاب المتخيل، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2003، ص 75.

7_الرحلة الإقتصادية (التجارية):

إرتبطت هذه الرحلات بحركة القوافل عبر الطرق البرية كطريق الحرير أو المسارات البحرية كطريق التوابل، الدافع الأساسي لها هو التبادل التجاري والبحث عن أسواق جديدة، إلّا أن قيمتها الأدبية والتاريخية تكمن في كون الرحالة التاجر يقدّم وصفاً دقيقاً وميدانياً للعملات المتداولة والمكاييل، ونظم الضرائب والجمارك، وأنواع البضائع، إضافة إلى عادات السوق في البيع والشراء وتعد هذه المدونات اليوم وثائق إقتصادية واجتماعية نادرة تؤرّخ البدايات المبكرة للتواصل الإقتصادي العالمي.

8_الرحلة الصوفية:

هي رحلات زيارية صوفية تكتسي طابعاً دينياً وروحياً وتتمثل في زيارة العبّاد والزهّاد والوعّاظ. ويعتبر "أبو بكر الهروي" أشهر الرحالين المختصين في المزارات المبتوك بها، وقد دوّن تنقلاته تحت عنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات". [1]

وهذا دليل على زيارة الأضرحة والمقامات المشيدة في البلدان الإسلامية ولا تخلوا كتابته من إفادات جغرافية وتاريخية عن الأقاليم التي مرّ بها، وكان دافعها السياحة في الأرض كجزء من التربية الروحية وزيارة مقامات الأولياء والصالحين وحضور مجالس الذكر والزوايا في مختلف الحواضر الإسلامية.

9_الرحلة الخيالية والرمزية:

هي نوع من القصص الخرافي والأسطوري كتبه الأدباء معتمدين على خيالات مجنحة وأساليب مشوقة وقصدوا من ذلك التسلية وخلق أجواء من خيالهم لإثارة المغامرة وتوسيع الخيال كرحلات السندباد البحري.

هي رحلات لم تحدث في الواقع المادي، بل تدور في ذهن الكاتب ومخيلته، حيث يتم توظيف إطار الرحلة وقالبها السردي لتمرير أفكار فلسفية أو نقدية أو دينية أو سياسية قد تكون الرحلة في

[1] الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ المغرب، ج 1، ط 2، 2002، ص 39.

عوالم ما بعد الموت أو صعوداً إلى السماوات، أو انتقالاً إلى جزر خيالية أو إلى العالم الآخر، تعتمد هذه الرحلات على الرمز والأسطورة.

من خلال هذه الأنواع السالفة الذكر نلاحظ تعدد أنواع الرحلات باختلاف الغرض منها وهذا ما جعلها أحد المصادر المساعدة للتاريخ بل تعتبر حلقة من حلقاته الأساسية المكونة له وعلى غرار ذلك تكتسي الرحلات أهمية بالغة في حياة الإنسان لإرتباطها بعدة علوم ومعارف جغرافية واجتماعية ودينية.....

ثانيا: أسباب ودوافع أدب الرحلة

مما لا شك فيه أن هناك عدة أسباب ودوافع قد أسهمت في هجرة الإنسان من موطن نشأته إلى موطن آخر، ومن مكان إلى آخر فلم تكن هذه الأسفار والتنقلات جميعها لتمرّ أمام أعين الرحالة دون أن تحرّك لها مشاعره فيترك العنان لقلمه حتى يصف لنا ما لاحظه أو ما تخيله في رحلته فتنوعت أساليب تعبيره، ومن هنا كانت أهمية النص الرحلي على اختلاف ضروبه فحب السفر والشغف لمعرفة العالم وما فيه هواية استهوت العلماء والمغامرين ودفعتهم إلى تحمل المشاق تحت وطأة أسباب متعددة تختلف من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر ومن لزمن آخر ومن أبرز هذه الأسباب.

1_الدوافع الدينية:

وكما هو ظاهر من إسمها فإن السبب فيها ديني خالص، كالرحلة إلى الحج والتوجّه إلى البقاع المقدسة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قبل ذلك رحلات الرسل لتبليغ الدعوة الإسلامية ورحلة الإسراء والمعراج التي قام بها الرسول المبشر، ورحلات الوفود لإعتناق الإسلام، ورحلات الصحابة لتعليم قواعد الإسلام. [1]

[1] عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن هجري، الرياض السعودية، 1996، ص 42.

وغيرها من الرحلات التي كان الهدف الأساسي منها مرتبط بالعقيدة والدين.

2_الدوافع العلمية والتعليمية:

تعد الرحلة العلمية من أهم الرحلات وأقدمها، وذلك يستلزم معرفة الأماكن والمناطق، وإلى ذلك التفت العرب في تآليفهم الأولى في الجغرافية، [1] فكان طلب العلم من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للقيام بالرحلات، كما فعل الحارث بن كلدة الطبيب في الجاهلية، ثم اللغويون والنحويون ورواة الشعر فيما بعد للأخذ عن القبائل الخالصة، [2]للإستزادة من العلوم ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم مباشرة.

3_الدوافع السياسية:

بجانب الرحلة في طلب العلم كانت هناك أهداف أخرى لغرض التعرف على أحوال البلاد السياسية ومراكز الحياة العلمية ومشاهدة الطرق والمسالك وحياة الناس من عادات وتقاليد على غرار رحلات الوفود والسفارات، التي يرسل بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيداً لفتح أو غزو. [3]

ومن قبيل ذلك البعثات الدبلوماسية والهجمات الإستخبارية ومنها أيضاً الرحلات التمويهية التي تتستر وراءها أسباب أخرى غير التي يعلنها الرحالة.

4_الدوافع السياحية:

وتكون الرحلة هنا بدافع الترويح عن النفس وطلب الإستجمام وتغيير الأجواء كما قد تكون لمعرفة المعالم الشهيرة والأبراج ونحوها، "تعد رحلات السياح الأجانب إلى بلادنا مصدراً هاماً لدراسة تاريخ مدنها وآثارها وأحوالها الإجتماعية والعمرانية وهي تتميز عن مصادرنا التاريخية الأصلية بتدوينها

---

[1] جورج غريب: أدب الرحلة وتاريخه وأعلامه، دار الثقافة، ط 3، 1979، ص 27.

[2] حسين نصار: أدب الرحلة، دار نوبار للطباعة، القاهرة مصر، ط 1، 1991، ص 32.

[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط 1، 2002، ص 20.

لبعض النواحي التي أغفلها مؤرخونا، ففيها شرح لعادات وأزياء وحياة أهلها وملامح من عيشتهم بأعين مختلفة وبتقويم مغاير"[1] ومنها أيضاً الرحلات الشخصية.

5_الدوافع الاقتصادية:

وتكون بغرض التجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى وتندر في بلد المسافر وقد تكون هرباً من الغلاء وسعياً وراء إنخفاض الأسعار واليسر والوفرة أو للعمل، [2] أو لجمع التبرعات والمعونات كرحلات الجمعيات الخيرية، ارتبط هذا النوع بحركة التجارة العالمية واكتشاف المسالك وطرق الملاحة ورسم الخرائط والبحث عن أسواق وثروات جديدة مما جعل هذه المدونات مادة دسمة لعلماء الجغرافيا والإقتصاد. [3]

6_الدوافع الخيالية: عادة ما تكون على لسان رحالة وهمي وبالتالي هو: "نوع من القصص الخرافي والأسطوري كتبه الأدباء معتمدين على خيالاتهم المجنحة وأساليب مشوقة قصد التسلية وخلق أجواء من صنع خيالهم لإثارة المغامرة وتوسيع الخيال مثل قصص جو ناتان سويفت الخيالية"[4] دون أن ننسى رحلات السندباد البحري طبعاً.

ومن خلال ما سبق نرى أن ممارسة فن الرحلة جاء لدوافع متعددة وقد لا نعدم أن نجد أسباباً أخرى للإرتحال كالسخط على الأحوال وضيق العيش والهروب من عقوبة، ويمكن القول إنه مهما كانت الأسباب فإن السفر جامعة تحفل بالدروس والعبرة وتشحذ بالعلم والمعرفة كما أنها سبيل للتعارف والتلاقي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾. [5]

---

[1] كارين صادر: دمشق في عيون الرحالة الفرنسيين، مجلة التراث العربي، ع 11، إتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، 2009، ص 261.

[2] فؤاد قنديل: المرجع السابق، ص20.

[3] الطاهر أحمد مكي: دراسات في أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة مصر،1993، ص 45.

[4] فؤاد قنديل: المرجع السابق، ص 20.

[5] القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية 13.

خلاصة الفصل:

ومن خلال هذا الفصل وجدنا أن أدب الرحلة من أكثر الأجناس انفتاحاً على غيره من الحقول المعرفية، إذ يتقاطع مع التاريخ والجغرافيا وعلم الإجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة والدين مما جعلنا أمام إشكالية تجنيسه هل هو جنس أدبي خالص أم خطاب معرفي مركب؟ فمن جهة نجده يحمل خصائص السرد الأدبي من وصف وتشخيص وحكي وبناء للشخصيات والأمكنة ومن جهة أخرى، يعتمد على التوثيق ونقل المعلومات والإثنوغرافية، هذه الطبيعة المركبة أسهمت في إتساع مجالات دراسته ضمن الأدب المقارن والدراسات الثقافية وتحليل صورة الآخر،

لذلك نجده جنساً مرناً عابراً للحدود المعرفية والأدبية لأنه يقوم على التداخل بين التخيلي والواقعي وبين الذاتي والموضوعي وبين الأدبي والتوثيقي مما يؤدي إلى صعوبة إخضاعه لقوالب ثابتة.

الفصل الثاني: تجليات صورة الآخر في كتاب في مدينة الضباب ومدن أخرى "لعبد الله ركيبي"

تمهيد:

بعد أن تعرضنا في الفصل الأول الإطار النظري والمفاهيمي إلى صورة الآخر في الدراسات النقدية وتطورها التاريخي في الأدب العربي، ننتقل في هذا الفصل إلى المقاربة التطبيقية التحليلية سعياً إلى تتبع تجليات الآخر وملامحه في مدونة رحلية جزائرية معاصرة متمثلة في كتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" للدكتور عبد الله ركيبي، على إعتبار أن النص يمثل فضاءً خصباً يتداخل فيه الشخصي بالسياسي والثقافي بالتاريخي، في قلب لندن يرصد الكاتب ملامح الآخر الغربي بعين لا تخلو من الدهشة ولا تستسلم إلى الانبهار ولا تقع في فخ التماهي، مسائلًا العمران والإنسان والقيم والجامعات والشوارع محاولاً أن يفهم الآخر ليفهم ذاته وموقع وطنه من معادلة التقدم والتخلف.

من هنا سنعمد إلى تفكيك آليات السرد الرحلي عند الكاتب وكيف صاغ مشاهداته وانطباعاته وما هي المحددات النفسية والأيديولوجية التي حكمت نظرته لهذا الآخر اللندني.

المبحث الأول: عبد الله ركيبي ورحلته إلى مدينة الضباب

إن قراءة أي نص رحلي ومحاولة تفكيك شفراته لا يستقيمان دون الغوص في عالم الكاتب المرتحل، فالرحالة لا يسافر مجرداً من هويته وتكوينه المعرفي بل إن عينيه اللتين يرى بهما العالم هما نتاج مسار حياته ونتاج ثقافته وبيئته. وفي هذا المبحث نقف عند شخصية الكاتب والأكاديمي والدبلوماسي عبد الله ركيبي للتعرف على مسار تكوينه الذي أثر في تشكيل وعيه ونظرته للأشياء، كما سنسلط الضوء على ملابسات رحلته إلى المركز الحضاري الذي استقطب اهتمامه وأثار لديه الكثير من المقارنات الثقافية، ألا وهي العاصمة البريطانية لندن مما جعله يوثق تجربته في نص يمزج بين المتعة السردية الأدبية وعمق التحليل الفكري.

المطلب الأول: التعريف بالرحالة

يعد الدكتور عبد الله ركيبي من أبرز الوجوه الأدبية والنقدية التي أسهمت في تأسيس الخطاب النقدي والسردي المعاصر في الجزائر، فقد مزج في مسيرته الممتدة بين الإبداع الأدبي والبحث

الأكاديمي والعمل الدبلوماسي، وفيما يلي سنعرض أهم محطات حياته ومسيرته التي انعكست في ابداعاته الرحلية.

أ_ مولده ونشأته:

ولد عبد الله ركيبي عام 1930م في قرية جمورة التابعة لولاية بسكرة في الجنوب الجزائري نشأ في بيئة محافظة، تلقى تعليمه الأولي في الكتاتيب وحفظ القرآن الكريم مما منحه زاداً لغوياً ودينياً وشكل النواة الأولى للأنا الثقافية التي ستقارن نفسها بالآخر لاحقاً. شغف بالعلم والأدب واصل دراسته حتى إلتحق بجامعة القاهرة فإنفتح على ثقافة أخرى وتتلمذ على يد كبار النقاد والمفكرين وتوّج مساره الأكاديمي بشهادة الدكتوراه، إنعكس هذا التكوين على كتاباته التي اتسمت دائماً بالعمق المنهجي والتحليل الموضوعي الدقيق.

وقبل التحاقه بجامعة القاهرة نهل من منابع الأصالة العربية الإسلامية إذ درس في معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ثم شد الرحال إلى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة وتخرّج منه سنة 1954م، انعكس هذا التكوين على وعيه الوطني المبكر حيث ساهم بقلمه في الثورة التحريرية الجزائرية وكان من أعماله مسرحية ذات طابع نضالي وثوري صدرت في تونس عام 1956 بعنوان "مصرع الطغاة" وهذا الحس الوطني شكّل لديه "أنا" قوية ومتجردة لا تنبهر بالآخر الغربي إلى حد الاستلاب بل تحاوره من موقع الندية. [1]

تقلد ركيبي وظيفة التدريس والكتابة الأكاديمية، وانخرط بقوة في الشأن الثقافي والسياسي الجزائري، عمل محرراً للصفحة الثقافية في جريدة الشعب، وتولى رئاسة إتحاد الكتاب الجزائريين، فكان له دور محوري في الدفاع عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية، تقلد مناصب دبلوماسية وسياسية رفيعة عُيّن سفيراً للجزائر بسوريا عام 1995، ثم مستشاراً في المجلس الأعلى للقضاء ونائباً

[1] رابح بوكريش: الحركة المسرحية في الجزائر، دار الأمل، الجزائر، ط 1، 2003، ص85.

في مجلس الأمة الجزائري توفي بتاريخ 19 أفريل 2011، تاركاً إرثاً فكرياً ضخماً[1] أثرى به المكتبة بمؤلفات نقدية شكلت مراجع أساسية للباحثين منها:

ـــ تطور النثر الجزائري الحديث والقصة الجزائرية القصيرة وفلسطين في النثر الجزائري الحديث أما في مجال السرد وأدب الرحلة فقد برز كتابه "في مدينة الضباب ومدن أخرى."

امتلك ركيبي وعياً عميقاً بضرورة التواصل مع الجماهير ورعاية المواهب فقدم برنامج تلفزيوني شهير "أقلام على الطريق" بّث عبر التلفزة الجزائرية مطلع الثمانينات، ومن خلال هذا المنبر استضاف العشرات من الأدباء والشعراء الشباب الذين أصبحوا لاحقاً من كبار الكتاب في الجزائر مما يعكس روحه المعطاءة وإيمانه بتواصل الأجيال الثقافية. [2]

يجمع الباحثون على أنه أحد الأدباء المؤسسين للنقد الأدبي الحديث في الجزائر، حيث لم يكتف بالتنظير بل نزل إلى الميدان لدراسة المنجز الأدبي الجزائري، فحلل القصة والرواية والشعر وامتدت جهوده إلى نقد الحكاية الشعبية والأدب الشفوي للحفاظ على الهوية الجزائرية، الوطنية كان يدعو إلى منهج نقدي متكامل يراعي النص ولا يعزله عن بيئته وصاحبه بعيداً عن الانطباعية والمجاملات المجانية. [3]

كما إقترح ركيبي في مقاربته لأدب الرحلة مصطلحاً مرادفاً وهو "السياحة الأدبية" وهو العنوان الفرعي الذي اختاره لكتابه "في مدينة الضباب ومدن أخرى" كان يرى أن الرحلة ليست مجرد وصف جغرافي لمعالم المكان بل هي رحلة ثقافية حضارية وعندما زار عاصمة الانجليز كان يحمل في ذهنه كتابه السابق "الجزائر في عيون الرحالة الانجليز" وكأنه أراد من خلال رحلته أن يعكس النظرة فيكتب عن الآخر الغربي في عقد داره محولاً النص الرحلي إلى فضاء لطرح أسئلة الحضارة العميقة والمقارنة بين الشرق والغرب. [4]

---

[1] عاشور شرفي: معجم الكتاب الجزائريين، مؤسسة القصبة للنشر، الجزائر، ط 1، 2007، ص 245.

[2] عبد الحميد عبدوس: الدكتور عبد الله ركيبي، الأكاديمي الأديب الدبلوماسي، جريدة البصائر، العدد 542، الجزائر، 2011.

[3] محمد ساري: مقالات في النقد الأدبي الجزائري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2005، ص 34.

[4] نصيرة بحري: أدب الرحلة، إشكالية المصطلح وتنقيب المفهوم، دار نيبور للطباعة والنشر، العراق، ط 1، 2015، ص 68.

أما أسلوبه فقد تميز بمجموعة من الخصائص منها المزاوجة بين الصرامة الأكاديمية والجمالية الأدبية والاستطراد والتداعي وبين السياحة الأدبية تميّز بجمعه البارع بين عقلانية الباحث الأكاديمي ورهافة حس المبدع الأديب، اتسمت لغته في وصف الآخر والمدن التي زارها بالتصوير الحي والقدرة على الغوص في سيكولوجية المكان وسلوكياته الاجتماعية هذا الأسلوب المتميز جعل من رحلته نصاً يمتع القارئ بجماليته الأدبية ويحفزه على التفكير في عمق مفارقاته الحضارية في آن واحد. [1]

ويؤكد ذلك قوله: "وأسجل بأنني أحياناً أستطرد لسبب بسيط هو أنني قد أنطلق من مدينة معينة لأتحدث عن تجربتي في آخر لكي أربط الحاضر بالماضي وحتى يكون هناك خيط ينظم هذه الانطباعات بعضها إلى بعض". [2]

المطلب الثاني: إضاءة حول رحلة الكاتب

يعد كتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" من أهم المتون الرحلية البارزة في السرد الجزائري المعاصر فهو نص لا يكتفي بنقل المشاهدات الجغرافية إنّما يجوب دهاليز البنية الثقافية والاجتماعية للمدن التي زارها الكاتب متخذاً مدينة لندن مركزاً لرحلته ومحوراً لمقارباته ولتقديم نظرة شاملة لمضمون الكتاب نفصله في المحاور التالية:

_عتبة العنوان ودلالته المكانية:

يحمل العنوان في طياته دلالة سيميائية عميقة فمصطلح "مدينة الضباب" كناية عن العاصمة البريطانية لندن هي عبارة لا تتوقف عند وصف المناخ السائد بالمدينة وإنما تتجاوز ذلك بشحنة ثقافية ونفسية، فالضباب هنا يرمز الى الغموض والبرود العاطفي والعزلة التي تميّز المجتمع الغربي في نظر الكاتب المشرقي، أما الشق الثاني من العنوان "ومدن أخرى" فيحيل إلى انفتاح الرحلة على فضاءات متعددة. [3]

---

[1] مخلوف عامر: مظاهر التجديد في الأدب الجزائري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط 1، 2001، ص 70.

[2] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص 10.

[3] علاوة كوسة: السرد الرحلي الجزائري البنيات والدلالات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2017، ص88.

فالكاتب كتب كتابه من وحي زيارات مختلفة في أزمنة متقاربة حيناً متباعدة حيناً آخر، لأمكنة مختلفة عربية وأجنبية كمصر وسوريا وفرنسا والفلبين والمجر وألمانيا وروسيا.

ـ دوافع الرحلة وسياق التأليف:

من خلال قراءتنا للنص نجد أن الكاتب لم تكن رحلته بدافع سياحي ترفيهي وإنما كانت مدفوعة بفضول معرفي أكاديمي وهذا الدافع جعله يرصد الأوضاع بعين باحث لا بعين سائح ويظهر ذلك من خلال قوله: "وجاءت الفرصة عام 1979 حيث وافقت وزارة التعليم العالي على لأنّه من حقي بعد أن قضيت سنوات طويلة بالجامعة أن أتفرغ للدراسة والبحث لمدة عام، بدأت أستعد للسفر لأحقق هذا الأمل وهاجس قوي يلح على فكري وهو ضرورة البحث عما كتبه الإنجليز في بلادنا وكذلك معرفة هذا البلد الذي لعب دورا بارزا في العالم. [1]

لذلك نجده تركز على الجامعات والمكتبات والمتاحف والنظام التعليمي.

ـ البنية المعمارية للكتاب:

من خلال عنوان الكتاب وقراءتنا لصفحاته رأينا أن الكتاب ينقسم بنيوياً إلى قسمين رئيسيين يتفاوتان من حيث الحجم والتركيز، يتألف من مقدمة وأربعة عشر عنواناً.

ـ القسم الأول:

المحور اللندني يستحوذ على مساحة كبيرة من النص فيه يسرد الكاتب تفاصيل إقامته فيها متجولاً في شوارعها ومتاحفها وحدائقها مثل: "الهايد بارك" في هذا القسم تبلغ المقارنة ذروتها

بين دفء الجنوب وبرودة الشمال الانجليزي يقول الكاتب الجزائري يوسف وغليسي: "ولكن لندن هي سيدة الأمكنة التي تستبد بالقسط الأكبر من هذا الكتاب، وتهيمن على صفحاته من الفصول الداخلية إلى العنوان الخارجي الذي يعطف كل المدن الأخرى عليها وحدها." [2]

---

[1] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص 17.

[2] يوسف وغليسي: المرجع السابق، ص 290.

ـ أما القسم الثاني: عبارة عن أفكار وخواطر قصيرة متفرقة ومشاهدات عابرة لمدن أوربية وعربية أخرى زارها الكاتب وتأتي في محطات لتكمل الصورة وتوسع دائرة المقارنة الحضارية فالكاتب كتب كتابه من وحي زيارات مختلفة في أزمنة متقاربة حينا متباعدة حيناً آخر، مثل: مصر وسوريا وفرنسا والفلبين والمجر وروسيا وألمانيا.....

كما نجده تحدث عن مدن لم يزرها وكأنها زارها في الحلم يرتحل إليها في أحلام اليقظة وهذا شبيه بالرحلات الخيالية مثل رحلته العالمة إلى مدينة الحلم والأحزان القدس.

يقول: "يتمنى المرء أن يزورها ولكن ظروفا قاهرة تحول دون تحقيق أمنيته، ومن هذه المدن ما يزورها خياله دائماً وتتجه إليها أحلامه فهي لا تفارقه بل يحملها في قلبه أينما ذهب وحيثما ارتحل". [1]

ـ الطابع الأجناسي للكتاب (السياحة الأدبية):

من خلال قراءتنا لعنوان الكتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" نجد أن الكاتب أردفه بعنوان فرعي مثير تعكسه هذه العبارة "سياحة أدبية"، وهو مصطلح يشير إلى تداخل الأجناس في النص وهو تمرد على القوالب الجغرافية الجافة لأدب الرحلة الكلاسيكية «حيث تتمازج السيرة الذاتية مع المقالة الصحفية والتحليل السوسيولوجي مع الخاطرة الوجدانية." [2]

ويظهر هذا في قوله: "لابد هنا من التنويه بأنني لست رحالة سافرت بغرض التجول وتسجيل العادات والتقاليد أو وصف الطبيعة والتلذذ بالهواء الطلق.... أقول إنني أبديت اهتماماً بقضايا ربما تهم القارئ عندنا وقد يجد إجابات عن أسئلة تخطر بذهنه وهو يقرأ هذه الصفحات وفي الواقع إنني أعتبر ما كتبته من باب السياحة. [3]

وقد اعتمد الكاتب لغة أدبية راقية تعتمد على التصوير المفارق والسخرية المبطنة أحياناً مما يجعل القارئ شريكاً في التأمل هذه المفارقات الحضارية وليس مجرد متلقٍ لمعلومات جغرافية. [4]

---

[1] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص221.

[2] بوعلام بلقاسمي: تشكلات الفضاء في السرد الجزائري، دار الحكمة، الجزائر، ط 1، 2006، ص118.

[3] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص12.

[4] بوعلام بلقاسمي، المرجع نفسه، ص 118.

المبحث الثاني: فضاء الرحلة

يشكل فضاء الرحلة في الكتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" لعبد الله ركيبي بنية مركزية يتأسس عليها النص الرحلي حيث لا يقدّم المكان بوصفه مجرد إطار جغرافي محايد، بل يتحول إلى عنصر دلالي وثقافي يكشف عن رؤية الكاتب للآخر وللحضارة الغربية عموماً، فالفضاء في هذا الكتاب متعدد المستويات تتداخل فيه الأبعاد المادية والرمزية والنفسية، مما يمنحه عمقاً يتجاوز الوصف الخارجي إلى التحليل والتأمل.

ـ **ففي المستوى الأول:** يتجلى الفضاء الجغرافي الحضاري خاصة من خلال تصوير مدينة لندن "مدينة الضباب" والتي سنركز عليها في دراستنا باعتبار أن الكاتب يقدمها نموذجاً للمدينة الغربية الحديثة مؤكداً على تفاصيل دقيقة؛ كتنظيم الشوارع ودقة المواصلات وهندسة المباني ونظافة الفضاء العام، وهي كلها عناصر تسهم في بناء الصورة الحضارية للمدينة، إذ يقول: "وقد أحسست بأنني منجذب إلى هذه المدينة وإلى طرقاتها الواسعة وبناءاتها المترامية الأطراف، وكلّما توغلنا فيها أدركت مدى اتساعها وشدّت انتباهي عماراتها، فمبانيها متشابهة الآجر، الخضرة في كل مكان .... مما يجعل الناظر إليها يحس بالتناسق والفن والجمال.[1]

لكن هذا الوصف لا يأتي محايداً بل مشحون بدلالات إذ يجعل من المدينة تجسيداً لقيم الحداثة والتقدم المادي وفي الوقت نفسه يلمح إلى ما قد يرافق ذلك من برود إنساني أو تراجع في العلاقات الاجتماعية الدافئة.

ـ**وفي المستوى الثاني:** يتشكل الفضاء الثقافي والحضاري حيث تتحوّل الرحلة إلى مجال للمقارنة الضمنية بين عالمين عالم الكاتب وهو الشرق العربي الإسلامي وعالم الآخر وهو الغرب.

فالمدينة لا تُقرأ فقط من خلال عمرانها بل من خلال ما تمثله من منظومات فكرية وقيمية مثل الحرية الفردية، احترام القانون والإنفتاح الثقافي، ومن خلال هذا التفاعل يعيد الكاتب مساءلة مفاهيم مثل :الهوية والتقدم والتخلف؛ مما يجعل الفضاء الرحلي فضاءً فكرياً بامتياز، ودار الحوار بيننا طويل

[1] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 21.

لنقارن بين التربية عندهم وعندنا رغم أن لدينا ديننا الحنيف يلح على الصدق والنصوص الكثيرة تشيد بالصدق وأهله وتتوعد الكاذبين بالعقاب لكن أصحاب هذه النصوص لا يطبقونها بكل أسف في حين أنّ هؤلاء يطبقونها في حياتهم العملية عن وعي وتربية لذلك كانت المقولة الشهيرة للإمام محمد عبده حين زار أوروبا بأنه وجد الإسلام هنا ولم يجد المسلمين وأما في الشرق فقد وجد المسلمين ولم يجد الإسلام. [1]

أما الفضاء الإنساني فيبرز من خلال احتكاك الكاتب بسكان هذه المدن وملاحظته لأنماط سلوكهم اليومي سواء في العمل أم في الشارع أو في العلاقات الاجتماعية، وهنا يتحول المكان إلى مسرح للتفاعل البشري، حيث تتجلى سمات المجتمع الغربي: الفردانية والانضباط واحترام الخصوصية وهذه الملاحظات لا تُقدّم بمعزل عن خلفية الكاتب الثقافية، بل تقارن ضمنياً بما هو سائد في مجتمعه مما يعمق البعد التحليلي للنص إذ يقول: "ولكن الفرق هنا في لندن أن الناس لا يتزاحمون على الركوب أما في القاهرة حيث كثرة عدد السكان فأنت تشاهد التزاحم أينما ذهبت في محطات القطار وفي الحافلات وفي الشوارع ولا سيما الأحياء الشعبية وهناك فرق آخر فأنت في القاهرة ما أسهل عليك أن تتعرف على جارك أو رفيقك في القطار، أما هنا فالناس يعيشون في ذواتهم بعضهم يقرأ صحيفة يتسلى بها طوال الطريق أو كتاباً أو مجلة أو يتأمل صامتاً من النافذة..... إن التواصل هنا صعب.[2]

ـ ثم يأتي الفضاء النفسي الذاتي: حيث تتخلل الرحلة مشاعر متعددة يعيشها الكاتب منها الإعجاب بالتقدم والدهشة من الاختلاف وأحياناً الإحساس بالغربة والتباعد الثقافي.

هذا البعد يجعل الرحلة تجربة داخلية أيضاً إذ لا يكتفي الكاتب بوصف الخارج بل يكشف عن التحولات في نظرته الذاتية أثناء الاحتكاك بالآخر ومن هنا يصبح الفضاء مجالاً لتفاعل الأنا مع الآخر لا مجرد مكاناً للمرور.

---

[1] المصدر نفسه، ص 40 -41.

[2] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 41.

يقول ركيبي: "أما الآن في لندن فقد أصبح خصمك فيها هو الحاسوب وليس شخصاً ما، والصراع هنا بين الإنسان والآلة ويصعب على المرء أن يخضع الآلة مهما كانت ذكية ومتفوقة لأن العقل الإنساني أذكى منها بالطبع". [1]

ـ كما لا ننسى الحديث عن الفضاء الرمزي: حيث تتحول بعض المدن أو المعالم إلى رموز دالة فمدينة الضباب نفسها ليست مجرد اسم جغرافي بل ترمز إلى غموض الحضارة الغربية وتعقيدها وإلى تلك المسافة التي تفصل بين ظاهرة التقدم وحقيقته العميقة وهكذا يكتسب المكان بعداً إيحائياً يفتح المجال للتأويل.

ومن خلال هذا التحليل نرى أن فضاء الرحلة عند الكاتب هو فضاء مركب ومفتوح يجمع بين الوصف الحسي والتحليل الفكري والتجربة الذاتية ويؤدي وظيفة أساسية في بناء صورة الآخر وفهمه، فالرحلة ليست انتقالاً في المكان فقط بل هي انتقال في الرؤية والمعرفة تجعل من الفضاء وسيلة لاكتشاف العالم وإعادة اكتشاف الذات في آن واحد.

المطلب الأول: صورة الآخر الحضارية

تتأسس صورة الآخر الحضارية في المدونة على الملاحظة الدقيقة لمظاهر التمدن وسلوك الفرد داخل المؤسسة، والمجتمع الغربي حيث لم تكن نظرة الكاتب أحادية بل جاءت مركبة كما أشرنا سابقاً تثير النقد ويمكن حصر ذلك في التجليات التالية:

ـ الآخر المنظم والانبهار بالنسق المديني:

أوّل ما يثير انتباه الرحالة في فضاء الآخر هو درجة التطور والنظام الدقيق الذي يحكم حركة المجتمع حيث يقدم الكاتب صورة الغربي بوصفه صانعاً لبيئة مدينة بالغة التعقيد والترتيب يحترم القانون ذلك في بداية رحلته في مطار هيثرو: "وأنا أخطو فوق مطار هيثرو الذي رأيته من فوق وشاهدت ضخامته وكثرة الطائرات التي تجثم فوق أرضيته بحيث يعتبر ممراً لمختلف القارات. [2]

---

[1] المصدر نفسه، ص 79.

[2] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 18.

ويقول أيضاً "فلفت نظري كثرة الشبابيك والسكون الذي خيّم على المكان والنظام المحكم الذي يلتزم الجميع به فلا أحد يتجاوز دوره ولا أحد يتدخل من أجل الآخر". [1]

فالكاتب معجب بنظام الآخر وتطور المنشأة المدنية والعمران ومنجذب إلى طرقاتها الواسعة وبناءاتها المترامية الأطراف، يقول: "والإنجليز بطبيعتهم محافظون ليس فقط في السياسة والتقاليد والعادات والمظاهر بل أيضاً في عمرانهم بحيث تحس هنا بالفرق بينه وبين مثيله في مدن أوربية أخرى".

كما يصف الكاتب الطريقة التي بني فيها العمران يقول: "ويبدو أن القاعدة التي بنيت عليها العمارة لديهم هي ما يعرف في الهندسة بالمثلث حتى أنك إذا قدرت ستخرج إلى شارع تعرفه..... تجد نفسك في مكان آخر أو منطقة أخرى عكس عمارة الجزائر أو باريس". [2]

وهذه الصورة الحضارية الإيجابية تعكس تفوق الغرب في إدارة الفضاء، وتدفع الرحالة بشكل غير مباشر إلى عقد مقارنة يتحسّر فيها على غياب النظام في فضاء الأنا العربية.

يقول: "ولعل العمارة الإنجليزية استفادت من العمارة الفرعونية القديمة التي تجسدها الأهرامات بصورة واضحة فهي تقوم على قاعدة مثلثية من الأسفل حتى الأعلى." [3]

ثم يتساءل الكاتب إن كان للإنجليز عرف في هذه العمارة منذ زمن موغل في القدم.

ــ العزلة والفردانية المفرطة في الفضاء المفتوح:

تتجلى العزلة والفردانية المفرطة في الفضاء المفتوح من خلال مفارقة لافتة، إذ يبدو الفضاء الحضاري الغربي مفتوحاً واسعاً ومنظماً إلى حد كبير لكنه في الوقت نفسه لا يفضي بالضرورة إلى تواصل إنساني حقيقي، فالكاتب يلاحظ أن الشوارع مزدحمة ووسائل النقل والساحات العامة رغم

---

[1] المصدر نفسه، ص 19.

[2] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 21

[3] المصدر نفسه، ص 22.

إمتلائها بالناس تعكس نوعاً من الانفصال بين الأفراد حيث يتحرك كل شخص في عالمه الخاص دون تفاعل يذكر مع الآخر.

هذه الفردانية لا تفهم فقط بوصفها حرية شخصية بل تتجاوز ذلك إلى شكل من العزلة الصامتة التي تفرغ الفضاء الجماعي من دفئه الإنساني، حيث يقول: "لفت نظري هذا الصمت الذي ران على الركاب فنادراً ما تسمع أحداً يهمس أو يتحدث أو يعلّق على موقف لا يعجبه وغالبا ما يكون التعليق بحركة في الوجه تنبئ عن إشمئزاز مثلا، لأن الإنجليز لا يميلون إلى الكلام الكثير.... أما الإنجليز فإنهم يكتمون مشاعرهم وهذا راجع إلى مزاجهم الهادئ وإلى أسلوبهم الحضاري في الحياة، لذلك شهروا بالتحفظ في التواصل مع بعضهم". [1]

وهكذا يتحول الفضاء المفتوح رغم رحابته وتنظيمه الى فضاء بارد إنسانياً لا يخفف من شعور الفرد بالوحدة بل قد يعمقه.

_تقديس العمل والزمن:

كما تتجلى صورة الآخر الحضارية بقوة في علاقته بالزمن فالإنسان الإنجليزي في نص الكاتب هو كائن عملي يقدّس الدقيقة ولا يعرف الفراغ حيث تتشكل صورة الآخر هنا بصورة منتجة وفعّالة يتحول العمل إلى قيمة عليا ومحرك أساسي للحضارة مما يفسر السر الكامن وراء الهيمنة الحضارية والمادية لهذا الآخر، حيث يقول: "فهم يحترمون الوقت ويلتزمون به بدقة ملحوظة بل ويقيسون به شخصية الفرد ومدى احترامه لنفسه وللآخرين." [2]

فالكاتب يرى أن الآخر مبرمج على الدقة واحترام الوقت وتقديس العمل.

---

[1] المصدر نفسه، ص 36.

[2] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 56.

_فضاءات الذاكرة والثقافة (المتاحف والمكتبات):

من خلال قراءتنا للنص نجد أن صورة الآخر الحضارية لم تقتصر على الشارع المكتظ أو الآلة الصناعية بل تتجلى بوضوح في الفضاءات المعرفية، حيث يقف الرحالة بإجلال أمام إهتمام الغرب البالغ بالذاكرة الإنسانية وتوثيقها عبر المتاحف الكبرى والمكتبات العامة والمسارح.

يقول الكاتب في وصف المكتبات العامة: "توجد في وسط المدينة ولا تخطئ العين رؤيتها إذ تتكون من عدة طوابق وتضم العديد من المؤلفات بمختلف اللغات وفي شتى ضروب المعرفة مرتبة حسب الموضوعات...." [1]

كما تتشكل صورة الآخر الحارس للتاريخ والمعرفة حيث يعكس الفضاء المتحفي مثل المتحف البريطاني وعياً حضارياً عميقاً بقيمة التراث والعلوم.

حيث يصف الكاتب متحف الشمع الشهير بأنه معلم ثقافي هام فضلاً عن كونه أعجوبة حقا: "ودلفنا إلى قاعة متوسطة الاتساع تنتظم فيها مجموعة لشخصيات مرموقة ومن مختلف أقطار العالم تكاد تعرف أصحابها وتحس كأنهم أمامك حقا"[2]

ومن المعالم الثقافية التي تحدث عنها الكاتب أيضاً ركن الخطابة بالحديقة ـ هذا الوجه المشرق للمدينة الغربية يستفز في الكاتب إحساساً بالمفارقة وحزناً مبطناً على واقع المؤسسات الثقافية في العالم العربي وضعف العناية بالذاكرة الجمعية.

وفي ختام حديثنا عن صورة الآخر الحضاري في الكتاب فإن الكاتب قدّم رؤية مركبة للغرب تجمع بين الإعجاب بالمنجز الحضاري والنقد لبعض مظاهر الحياة الحديثة، فقد وقف الكاتب عند التقدم العلمي والتنظيم العمراني واحترام الوقت والعمل، معبراً عن انبهاره بما حققته الحضارة الغربية من تطور ورقيّ. غير أنه في المقابل لم يُغفل ما صاحب هذه الحضارة من نزعة مادية وطغيان الفردانية وما نتج عنهما من فراغ روحي وضعف في العلاقات الإنسانية.

---

[1] المصدر نفسه، ص 93.

[2] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 87-88.

ومن ثمّ فإن صورة الآخر الحضاري لم تبن على الانبهار المطلق أو الرفض التام، بل جاءت صورة متوازنة تكشف وعي الكاتب بضرورة الانفتاح على الآخر والاستفادة من منجزاته الحضارية مع الحفاظ على الهوية الثقافية والقيم الإنسانية الأصيلة.

المطلب الثاني: صورة الآخر الاجتماعية

تتشكل صورة الآخر الاجتماعية في الكتاب ضمن رؤية تحليلية مركبة يسعى من خلالها الكاتب إلى تفكيك بنية المجتمع الغربي من الداخل لا بوصفه من الخارج، فالكاتب ينظر إلى المجتمع الغربي بوصفه منظومة من القيم والسلوكيات والعلاقات، ويجعل من الرحلة وسيلة لاكتشاف هذه المنظومة عبر الملاحظة والمقارنة والتأمل.

في مقدمة هذه السمات يبرز كقيمة مركزية تحكم الحياة اليومية في المجتمع البريطاني دقة المواعيد واحترام القوانين والالتزام بقواعد الفضاء العام مما يعكس مجتمعاً يقوم على العقلانية والتنظيم الصارم ويقابل ذلك حضور واضح للفردانية حيث يتمتع الفرد باستقلالية كبيرة في قراراته وحياته الخاصة دون تدخل يُذكر من الجماعة وهذا ما يمنحه حرية واسعة لكنه في الوقت نفسه يضعف الروابط الاجتماعية التقليدية.

وها هو الكاتب يقدم سمات اجتماعية إيجابية للشعب الإنجليزي إذ يقول: "وإلى ابتسامات ترف على الشفاه وهذه أيضاً من الظواهر التي يلاحظها المرء في لندن أينما ذهب وحيثما أقام فالمعاملة هي شعار الإنجليز وربما لأنه شعب متحضر أو يحب التجارة فيرحب بالضيف. [1]

كما يذكر الكاتب الصفات التي تميز الشعب الإنجليزي بقوله "يمتازون عن غيرهم بالاستجابة إذا طلبت منهم المساعدة فإذا سألت أحدهم أن يدلك على وجهتك لأنك لا تعرف الطريق سيلبي طلبك في الحال.... ولا يشعر بالتأفف أبداً حتى لو أخذت من وقته الشيء الكثير." [2]

[1] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 19.

[2] المصدر نفسه، ص 36.

بل يذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك فيصف المجتمع الإنجليزي لأنه مجتمع تربى على الصدق ثم ينتقل إلى رصد طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تبدو في نظره أكثر رسمية وأقل حميمية مقارنة بما هو مألوف في المجتمعات العربية، فالتفاعل بين الأفراد غالباً ما تحكمه الضرورة أو المصلحة، وتغيب عنه العفوية والتقارب الوجداني مما يخلق نوعاً من العزلة داخل الجماعة دون تواصل عميق.

يقول ركيبي: "على أنني صدمت من تغير معاملة صاحبة المسكن الذي أجرته بسبب الأحداث في وطني ورغم محاولتها إخفاء مشاعرها وراء ابتسامة متكلفة إلا أنني شعرت بعدم ترحيبها بي في داخل نفسها، المهم عندها المال وتلك ظاهرة عامة في هذا الغرب." [1]

من خلال هذا يبين لنا ركيبي طبيعة المجتمع الغربي الذي يضع مصلحته ومكسبه من الأولويات وهذا ما يؤكده الكاتب بو علام بلقاسمي قائلاً:"ويلاحظ الرحالة أن العلاقة الاجتماعية في العواصم الأوروبية تخضع لمنطق الربح والخسارة ولغة الأرقام فالصداقات واللقاءات مجدولة مسبقاً وفقاً لساعات العمل وتغيب عنها العفوية وحرارة اللقاء التي تميز مجتمعات الجنوب، إن المادة في مجتمع الآخر ليست مجرد وسيلة بل هي غاية تحدد قيمة الفرد ومكانته الاجتماعية مما يخلق مجتمعاً يفتقر إلى التعاطف المجاني والتضامن التلقائي. [2]

أما المرأة الغربية رصدها الكاتب منخرطة في عجلة الإنتاج ومشاركتها الفاعلة في بناء المجتمع باعتبارها أحد أبرز تجليات صورة الآخر في أدب الرحلة، حيث رسم المرأة من خلال مشاهد عابرة لكنها مكثفة، "صورها بوجوه متناقضة تكشف ثمن الحداثة عند الآخر"، وهو ما يعكس جانباً من التطور المدني ومساحة الحرية الممنوحة لها غير أن هذه الصورة الإيجابية سرعان ما تصطدم بنقد لاذع للمنظومة الرأسمالية الغربية التي تعمد إلى تسليع المرأة واستغلالها في قضايا الاستهلاك التجاري، هذا التناقض فقد جعل الكاتب يرى أن الغرب رغم تحريره للمرأة قانونياً واجتماعياً فقد سلبها في المقابل جزءاً من كرامتها الإنسانية بتحويلها إلى واجهة مادية وعنصر جذب تسويقي"[3]

---

[1] المصدر نفسه، ص 110.

[2] بوعلام بلقاسمي: تشكلات الفضاء في السرد الجزائري، المرجع السابق، ص 142.

[3] يوسف نويلي: صورة الغرب في الخطاب الرحلي الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 105.

ومن خلال ملاحظات الكاتب فإنه يلمح إلى اختلاف واضح بين وضع المرأة في الغرب ونظيرتها في المجتمعات العربية، خاصة من خلال المشاركة الاجتماعية والاعتماد على الذات غير أن تناوله لا يخلو من نظرة نقدية ضمنية إذ يرتبط هذا الحضور القوي بنوع من التحول في القيم الاجتماعية، يقول: "خاصة ما له علاقة بتحرر المرأة واحترامها وصون كرامتها من الابتذال عكس ما تفعله الحضارة الغربية التي مسخت المرأة وجعلت منها دمية في عين الرجل الذي بات لا يعني إلا بجسدها دون خلقها وروحها. [1]

ومن خلال الحديث عن صورة الآخر الاجتماعي في الكتاب يتضح أن الكاتب قدّم صورة مركبة للمجتمع الغربي تجمع بين الإعجاب ببعض مظاهر النظام واحترام الإنسان، وبين نقد واضح لما يطبع العلاقات الاجتماعية من فردانية وعزلة وهيمنة للمادة على القيم الإنسانية فقد رصد الرحالة تفاصيل الحياة اليومية وطبيعة تعامل الناس ومظاهر الحرية والعمل، لكنه في الوقت نفسه كشف عن شعور الإنسان بالغربة والفراغ الروحي داخل مجتمع متطور مادياً، وبذلك جاءت صورة الآخر الاجتماعي بعيدة عن التحيز المطلق، إذ سعى الكاتب إلى نقل مشاهداته بوعي نقدي متوازي يعكس تفاعله الآخر ومحاولة فهم خصوصياته الاجتماعية والحضارية.

المطلب الثالث: صورة الآخر السياسية

وجدنا نظرة الكاتب للآخر في لندن نظرة مثقف يدرك تماماً أن الجمال العمراني والنظام الاجتماعي هما نتاج بنية سياسية عريقة، لذلك لم يكتب عن بريطانيا بصفتها دولة بل بصفتها عقلاً سياسياً صنع الإمبراطورية ثم تقاعد ليحكم بالمتحف والقانون والبنك وتتشكل صورة الآخر السياسية في النص عبر ثنائيات الإعجاب بالآليات الديمقراطية، والنقد للتاريخ الاستعماري والازدواجية ويمكن تفصيل هذه الصورة في المحاور التالية:

[1] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص 142.

ــصورة الآخر الديمقراطي والمؤسساتي (احترام الحريات):

صوّر الكاتب إيجابية الآخر في جانبه السياسي المتمثل في الديمقراطية العريقة والقدرة على إدارة الاختلاف فقد بهرته فضاءات الحرية التي يمنحها النظام السياسي للفرد حين صور الكاتب ركن الخطباء في "الهايد بارك" كأسمى تجليات الديمقراطية وفي أبهى صورها، حيث قدّم الفضاء المكاني كمركز للنضج الحضاري والفكري ركن الخطابة:"إنه تقليد راسخ للديمقراطية الحقة يتحلق الناس حول خطباء من مختلف الاتجاهات والعقائد كل يدعو إلى قضيته أو فكرته أو ينقد سياسة معينة أو توجهاً لإحدى الحكومات أو الدول، هنا تتصارع الأفكار....وقد يصل الأمر إلى حد الهجوم اللاذع على السياسة الإنجليزية." [1]

ويتعجب الكاتب من الشرطة التي تحرس الخطباء والمستمعين وهو منتهى الديمقراطية صورة لم يرها الرحالة إلا في هذا البلد.

يعتبر الكاتب أن الآخر يمتلك القدرة على استيعاب الاختلاف ومنح الفرد مساحة حُرّة ومقدسة للتعبير عن آرائه مهما كانت متطرفة دون خوف أو رقابة أو قمع وهو أحد أهم إنجازات الحضارة الغربية، حيث الآخر هو الكائن السياسي الذي يزاول حقه في النقد والمعارضة دون خوف، فالكاتب يقدر هذه المؤسسات التي استطاعت أن توازن بين سلطة الدولة وحرية الأفراد.

وبالرغم من الإعجاب بالديمقراطية الداخلية في بريطانيا نجد أن الأنا العربية الجزائرية لدى الكاتب لا تستطيع الانفصال عن الذاكرة التاريخية، فعند زيارة الرحالة للمتاحف والساحات التي تخلّد القادة العسكريين تجلت له صورة المستعمر القديم الذي بنى عظمته السياسية في أكبر جزء منها عبر استنزاف خيرات شعوب أخرى: "يتأمل الكاتب صروح المركزية الغربية وتنظيمها ومتاحفها بعين الناقد الذي يدرك أن جزءاً من هذا الثراء والتقدم المادي بني تاريخياً على حساب ثروات شعوب الأطراف

[1] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص 90.

(المستعمرات السابقة هذا الوعي يمنح مدونة الرحلة عمقاً أيديولوجياً وتاريخياً يتجاوز مجرد الانبهار السياحي الساذج".[1]

_سياسة الكيل بمكيالين وازدواجية المعايير:

يكشف الكاتب من خلال النّص الرحلي في ملاحظاته السياسية عن ازدواجية في شخصية الآخر فبينما يقدّس الآخر الحرية والإنسان في داخله فإنه يمارس سياسات مغايرة اتجاه قضايا الشرق وعلى رأسها القضية الفلسطينية، حيث تتشكل هنا الصورة السلبية لسياسة الآخر بوصفه منحازاً أو غير عادل في قضايا التحرر العالمي.

وهي صورة تعكس وعي ركيبي القومي الذي يرفض الفصل بين التقدم الحضاري للغرب وبين مواقفه السياسية اتجاه القضايا العادلة.

_سلطة الإعلام وتوجيه الرأي العام (الوجه الآخر للديمقراطية):

تكتمل صورة الآخر السياسية برصد الكاتب للمؤسسة الإعلامية بوصفها السلطة الرابعة والمحرك الفعلي للسياسة في بريطانيا، فالكاتب يبدي إعجابه بهامش الحرية الواسع الذي تتمتع به الصحف في نقد الحكومة والمسؤولين، لكنه في الوقت ذاته يفكك آلية هذه المؤسسات ليكشف عن انحيازها وتوجيهها الخفي للرأي العام، "تتشكل هنا صورة الآخر ككيان يملك آلة دعائية ضخمة قادرة على تزييف الوعي أو تلميع صورة الغرب وتشويه الأنا العربية مما يكشف البراغماتية السياسية التي تحكم الإعلام الغربي،" [2]خاصة عند ما يتعلق الأمر بقضايا الشرق الأوسط.

_مفارقة التقاليد الملكية والحداثة السياسية:

لاحظنا من خلال الكتاب أن ركيبي يراقب طقوس تبديل الحرس الملكي أو احتفالات القصر ويستنتج أن الآخر السياسي يوظف تاريخه وتراثه كرمز للوحدة القومية والاستقرار، في حين تدار

---

[1] يوسف نويلي: صورة الغرب في الخطاب الرحلي الجزائري المعاصر، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، ط 1، 2015، ص 65.

[2] عبد النبي ذاكر، الرحلة العربية إلى أوروبا، تشكل صورة الآخر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ط 1، 2004، ص 182.

عجلة الدولة الحقيقية في البرلمان، هذه المفارقة الإيجابية تعكس نضجاً سياسياً أتاح للآخر المضي نحو مستقبل دون أن يتنكر لماضيه.

كما لاحظنا أن الكاتب في نصه يرصد مفارقة بالغة التعقيد وهي كون لندن عاصمة الاستعمار القديم هي ذاتها الفضاء المفتوح الذي يحتضن المعارضين والمنافي السياسية من مختلف دول العالم الثالث والعالم العربي، فالنظام السياسي الغربي الذي أسهم تاريخياً في خلق أزمات الشرق هو نفسه الذي يوفر الملاذ الآمن وحرية التعبير للهاربين من قمع الأنظمة الشمولية في بلادهم الأصلية. [1]

فهذه الصورة المركبة تضع الرحالة والقارئ أمام مساءلة قاسية لواقع الحريات السياسية المتردي في فضاء الأنا.

في ختام الحديث عن صورة الآخر السياسي في الكتاب يتضح أن الرحالة لم يكتف بمجرد وصف الأنظمة السياسية والمؤسسات الغربية وصفاً خارجياً بل سعى إلى الكشف عن الأبعاد الفكرية والحضارية التي تحكم المجتمع الغربي وتوجه سلوكه السياسي والاجتماعي.

فقد قدّم صورة للآخر تقوم على التقدم والتنظيم واحترام القانون حيث بدأ المجتمع الغربي قائماً على أسس من الحرية الفردية والانضباط والوعي المدني، وهي مظاهر أثارت إعجاب الكاتب ودفعته إلى المقارنة الضمنية بين واقع الغرب وواقع المجتمعات العربية.

وفي المقابل لم تكن صورة الآخر السياسي صورة مثالية خالصة بل اتسمت بنوع من التوازن النقدي إذ أشار الكاتب ما يرافق هذا التقدم من نزعة مادية وهيمنة حضارية وشعور بالتفوق الثقافي الأمر الذي جعل صورته تتأرجح بين الإعجاب بإنجازاته والتحفظ تجاه بعض مواقفه السياسية والفكرية التي تقوض رؤيتها وتعيد تشكيل العلاقات وفق مصالحها.

المطلب الرابع: صورة الآخر الدينية

من خلال قراءتنا للنص نجد الكاتب يرسم الآخر الديني كأثر متبق من المسيحية يسكن في تفاصيل المدينة بعد أن أفرغت من روحها، الدين في لندن مات في القلوب وعاش في القوانين،

[1] عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، ط 1، 1998، ص 152.

فالكنائس شبه فارغة لا يرتادها إلا عشرة عجائز وشاب تائه، يلاحظ ركيبي أن حضور الدين في المجتمعات الغربية وخاصة في لندن يبدو محدوداً مقارنة بالمجتمعات الأخرى فالكنائس موجودة ولكنها غالباً ذات طابع تاريخي أو سياحي، والممارسات الدينية لا تظهر بقوة في الحياة اليومية.

فالكاتب يرسم صورة الآخر بوصفه يعيش نوعاً من العلمانية حيث ينفصل الدين عن تفاصيل الحياة العامة، ويركز على أن التدين في الغرب يميل إلى أن يكون شأناً فردياً لا يفرض اجتماعياً كما في المجتمعات التقليدية، والفرد يختار مدى التزامه دون ضغط جماعي واضح، هنا تتشكل صورة الآخر ككائن حر دينيا لكنه في الوقت نفسه أقل ارتباطاً بالبعد الروحي الجماعي.

كما نجد الكاتب يسجل مظهراً مهماً وهو التعدد الديني ووجود ديانات مختلفة (المسيحية والمسلمون وديانات أخرى) يعبّر عن نوع من التسامح القانوني والاجتماعي مع هذا التعدد، وهذا البعد يجعل صورة الآخر إيجابية نوعاً ما إذ تعترف له بالقدرة على التعايش رغم الاختلاف، يقول الكاتب: "الأول يتحدث عن المسيح عليه السلام ويشرح الديانة المسيحية ويدعو الناس لاعتناقها...والثاني مسلم يحث الحاضرين على الدخول في الإسلام. [1]

كما لمسنا من خلال قراءتنا أن الكاتب يرصد تحول الإنسان إلى شيء داخل المنظومة الحديثة تحكمه آليات العمل والإنتاج والاستهلاك فالإنسان في هذا السياق لا يقاس بقيمته الإنسانية أو الروحية بل بقدرته على الأداء والنجاعة مما يجعل العلاقات الإنسانية تميل إلى الطابع النفعي والبارد وتفقد دفئها التقليدي.

فمن خلال ملاحظاته اليومية يلمح إلى إيقاع الحياة السريع وهيمنة النظام المادي والانشغال الدائم بالعمل كلها عوامل تسهم في إضعاف البعد الروحي لدى الفرد فينشأ نوع من الفراغ الداخلي والخواء الوجداني، يقول: "ولكن تبقى المصالح هي التي تحرك الغرب في الأساس، أما الحديث عن العدل وحقوق الإنسان والمساواة والحوار الحضاري فكله يأتي في الدرجة الثانية حتى في علاقات

[1] عبد الله ركيبي، المصدر السابق، ص 142.

الأفراد أفراد يؤمنون حقاً بالإنسان وأشواقه ويدافعون عن حقوقه بصرف النظر عن المستوى المادي والحضاري والعقيدي"، [1]

غير أن الكاتب لا يقدم هذا الحكم بشكل قطعي بل يطرحه في صيغة تأملية نقدية إذ يوازن بين ما يراه من تقدم مادي وتنظيم دقيق، وبين ما يشعر به من نقص في الروابط الإنسانية والروحية العقائدية العميقة.

يقول: "فهم يرحبون بالأجنبي وطبعاً بما في جيبه فيقدمون له ما يشاء من خدمات بشرط أن يكون قادراً على الدفع...." [2] وهكذا يتحول مفهوم التشييئ الروحي في النص إلى أداة لفهم حدود الحضارة المادية وطرح تساؤلات حول إمكانية تحقيق التوازن بين التقدم التقني والامتلاء الإنساني.

من خلال تحليل صورة الآخر الدينية في الكتاب يتضح أن الكاتب لم يقدم الآخر من منظور الرفض المطلق أو الانبهار الكامل بل حاول أن يرصد اختلاف المنظومات الدينية والثقافية من خلال تجربة الرحلة والمشاهدة المباشرة، وقد كشف هذا العنصر عن وعي الكاتب بالفوارق الحضارية بين الشرق والغرب خاصة ما يتصل بعلاقة الإنسان بالدين ومظاهر التدين في الحياة اليومية، كما أبرزت الصورة الدينية شعور الرحالة أحياناً بالاغتراب الروحي داخل مجتمع يغلب عليه الطابع المادي، في مقابل تمسكه بهويته الثقافية والدينية، وهكذا أسهمت صورة الآخر الدينية في تعميق البعد الفكري والإنساني للنص الرحلي، وجعلت الرحلة وسيلة للتأمل في الذات والآخر معاً.

المطلب الخامس: الآليات الفنية في بناء صورة الآخر في الكتاب

من خلال النص رأينا كيف أن الكاتب يرسم ملامح الآخر ويعرضها وفق وسائط جمالية تداخلت فيها لغة الواصف مع رؤيا الناقد ويمكن حصر أبرز هذه الآليات في النقاط التالية:

[1] عبد الله ركيبي: المصدر السابق، ص 86.

[2] المصدر نفسه، ص 149.

1_آلية المقارنة والتقابل الضدي: (ثنائية الأنا والآخر)

نلاحظ من خلال النص أن الكاتب لم يصف الآخر إلا من خلال استحضار الأنا حيث يعتمد النص على ثنائيات ضدية متكررة مثل (حرارة الجنوب/برودة الشمال)، (دفء الروابط الاجتماعية في الجزائر/جفاء العلاقات في لندن)، (الفوضى / النظام) فالمقارنة تعد المحرك الأساسي للسرد في الكتاب.

هذه الآلية تجعل صورة الآخر "صورة مرآوية" تهدف في جوهرها إلى كشف عيوب أو مميزات الذات من خلال المقارنة بالمختلف. [1]

2_آلية الرمزية والاستعارة:

وظف الكاتب كلمة "ضباب" في العنوان وفي ثنايا النص كآلية رمزية للتعبير عن غياب الوضوح في العلاقات الإنسانية عند الآخر، فالضباب هنا استعارة كبرى ترمز للقطيعة الروحية التي يعاني منها المجتمع الغربي مقابل حضارة مادية مبهرة لكنها موحشة ومفرغة من جانبها الروحي.

3_التناص واستدعاء الموروث الثقافي:

نلاحظ من خلال النص أن الكاتب لم يتجرد من ثقافته العربية الإسلامية فقد دخل لندن وهو محمل بالقرآن والشعر، والتراث الشعبي الجزائري، فحين يرى الكاتب مشهداً غريباً بلندن يستدعي نصاً تراثياً يفهمه أو يحاكمه أو يسخر منه، وذلك التناص مع الموروث الشعبي الجزائري بقوله: "في المتحف، مرشد سياحي يشرح لنا كيف جاءت آثار مصر والعراق إلى هنا، قال بفخر: "حضارتنا جمعت حضارات العالم، ضحكت وتذكرت حكاية جدتي، الذئب يخطف العنز، وفي الطريق قال لها: أنا أحميك من الذئاب."

فقد ما ينقد مادية الغرب يستدعي نصوصاً تحث على الزهد والروحانية، مما يجعل النص الرحلي ساحة لصراع النصوص والأفكار حيث يواجه تاريخ الآخر بذاكرة الأنا [2]

---

[1] الطاهر أحمد مكي، دراسات في أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1993، ص 215.

[2] يوسف ومليس: تحليل الخطاب السردي والرحلي في الجزائر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2011، ص 175.

4_السخرية والتهكم (الآلية الدفاعية):

يلجأ ركيبي في كثير من المقاطع إلى السخرية، كأداة لتفتيت هيبة الآخر وتفوقه، ويسخر الكاتب من بعض السلوكيات التي يراها متناقضة مثل: إهتمام الإنجليز المبالغ فيه بالحيوانات الأليفة مقابل إهمالهم لكبار السن، السخرية هنا ليست للضحك المجرد بل هي آلية نقدية تهدف إلى تعرية زيف بعض المظاهر الحضارية للآخر. [1]

5_ بلاغة الوصف والتركيز على التفاصيل الدقيقة:

لاحظنا من خلال النص أن أسلوب ركيبي يتميز بقدرة فائقة على الوصف الدقيق للسلوكيات اليومية كطريقة المشي وطريقة الجلوس في المقاهي، والصمت في الحافلات وهي ميزة تجعل القارئ يعايش ما يراه الرحالة بأدق التفاصيل"، هذه اللوحات الوصفية تمنح صورة الآخر تجسيداً حياً يجعل القارئ يشعر وكأنه يراقب هذا المجتمع بعيني الرحالة، إن تركيزه على التفاصيل الصغيرة هو ما يبني الصورة الكلية للآخر في ذهن المتلقي". [2]

6_توظيف الخطاب الداخلي والخارجي كأداة لاستنطاق الآخر:

استخدم الكاتب تقنية الحوار لكسر رتابة السرد وإعطاء حيوية للنص، ويتنوع الحوار في النص بين حوار خارجي يجريه الكاتب مع بعض النماذج الغربية كالقطار أو المقهى والحديقة وذلك بغرض استنطاق طريقة تفكيرهم ورؤيتهم للعالم، وحوار داخلي يعكس مناقشة الكاتب لذاته لمحاكمة المشهد الذي يراه.

هذه الآلية تمنح الآخر صوتاً داخل النص وتجعل من الصورة المتشكلة نتاجاً لتفاعل حي ومباشر وليس مجرد انطباع عن بعد. [3]

---

[1] السعيد بوطاجين: في سردية الرحلة، مقاربات نقدية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص118.

[2] محمد مضايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 2001، ص10.

[3] محمد داود: السرد والرحلة مقاربات في الخطاب الأدبي، دار الأمل، الجزائر، ط 1، 2012، ص 65.

في ختام الحديث عن الآليات الفنية في بناء صورة الآخر يتبين أن الكاتب لم يعتمد على الوصف المباشر فحسب، بل وظف مجموعة من التقنيات السردية والفنية التي أسهمت في تشكيل صورة الآخر وإبراز أبعاده الحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية، فقد كان الوصف من أبرز الوسائل التي مكنت الرحالة من نقل ملامح الأمكنة والأشخاص والعادات بدقة، كما لعب السرد دوراً مهماً في تتبع تفاصيل الرحلة وتجاربها المختلفة، مما منح النص حيوية وواقعية، وإلى جانب ذلك حضرت المقارنة بوصفها آلية أساسية كشف من خلالها الكاتب أوجه الاختلاف والتشابه بين الأنا والآخر بين الشرق والغرب الأمر الذي أتاح له التعبير عن موقفه الفكري والحضاري بصورة غير مباشرة.

كما أسهم الحوار في تقريب صورة الآخر وإضفاء طابع إنساني على النص، إذ أتاح للكاتب فرصة الاحتكاك المباشر بالشخصيات الأجنبية والتعرف على أفكارها وسلوكياتها.

استطاع الكاتب من خلال هذه الآليات أن يقدم صورة متعددة الأبعاد للآخر حولت النص الرحلي من مجرد نقل للمشاهد والانطباعات إلى خطاب أدبي وفكري يكشف رؤية الذات للعالم ويعبّر عن موقفها من الاختلاف والتنوع الحضاري.

المطلب السادس: رسالة ركيبي للقارئ

من خلال رحلة الكاتب إلى مدينة الضباب والتي تعد تجربة معرفية وثقافية عميقة، تتجاوز مجرد الانتقال الجغرافي إلى كونها وسيلة لاكتشاف العالم وإعادة اكتشاف الذات في آن واحد فالكاتب لا يتعامل مع الرحلة بوصفها سياحة عابرة، بل يجعل منها مجالاً للتأمل والتحليل حيث يراقب مظاهر الحياة في المجتمع ويقارنها ضمنياً بمرجعيته الثقافية، ومن خلال هذا الاحتكاك يتولد لديه موقف متوازن يجمع بين الإعجاب ببعض جوانب التقدم كالنظام واحترام القانون، ودقة التنظيم المحكم وبين التحفظ تجاه مظاهر أخرى مثل: النزعة المادية وضعف الروابط الإنسانية.

كما تكشف الرحلة عن وعي نقدي واضح لدى الكاتب، إذ يسعى إلى فهم الآخر لا إلى الحكم عليه ويطرح تساؤلات فكرية حول القضايا الحضارة والهوية والعلاقة بين التقدم المادي والقيم الروحية

وفي الوقت نفسه تمنحه الرحلة فرصة لمراجعة بعض المسلمات المرتبطة بثقافته الأصلية، مما يجعلها تجربة حوارية بين الأنا والآخر.

لذلك يمكن القول إن ركيبي ينظر إلى رحلته بوصفها أداة للتثقيف الذاتي وتوسيع الأفق ووسيلة لبناء رؤية حضارية متوازنة تقوم على الانتقاء الواعي لا الانبهار ولا الرفض المطلق، فلا الغرب ليس جنة مكتملة ينبغي تقليدها ولا هو كيان منحط يجب إقصاؤه بل هو تجربة إنسانية مركبة يمكن الإفادة منها بقدر ما يمكن مساءلتها.

وفي هذا السياق يحرص الكاتب على إبراز القيم الإيجابية التي يلمسها في المجتمع الغربي مثل احترام النظام وتقديس العمل والالتزام بالقانون، والانفتاح على التعدد، وكأنه يحث القارئ العربي على استيعاب هذه الجوانب وتوظيفها في بناء مجتمعه، لكنه في المقابل لا يغفل عن تنبيه القارئ إلى بعض الاختلالات خاصة ما يتعلق بتراجع البعد الروحي وهيمنة النزعة المادية، مما يفتح أمام القارئ أفقاً للتفكير في أهمية التوازن بين التقدم المادي والقيم الروحية.

ومن هنا، تتجاوز رسالة الكاتب مجرد الوصف إلى نوع من المساءلة الحضارية التي تدفع القارئ إلى مقارنة واقعية بواقع الآخر لا بهدف المفاضلة السطحية بل بقصد الفهم العميق وإعادة التقييم.

كما تتضمن الرسالة بعداً حوارياً واضحاً إذ يشجع على الانفتاح على الآخر والتواصل معه مع الحفاظ في الوقت ذاته على الخصوصية الثقافية والهوية الذاتية، فالتفاعل مع الآخر في نظره ينبغي ألا يكون قائماً على التبعية ولا على الذوبان بل قائماً على الوعي.

وفي الختام نقول إن رحلة ركيبي تمحور حول بناء إنسان قارئ ناقد، قادر على استيعاب تعقيد الواقع الحضاري ومؤهل لاختيار ما يناسبه بوعي ومسؤولية، بعيداً عن التبسيط أو التحيز وجاعلا من الاحتكاك بالآخر فرصة للنمو الفكري والثقافي لا مصدراً للاغتراب والانبهار.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة التحليلية في نص عبد الله ركيبي "في مدينة الضباب ومدن أخرى" التي سعينا إلى تفكيك العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر في النص الرحلي الجزائري تمكنا من إجمال أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها في النقاط التالية:

- تتشكل صورة الآخر وفق رؤية الرحالة وخلفيته الثقافية والفكرية، لذلك جاءت هذه الصورة متفاوتة بين الإعجاب والانبهار أحياناً، والنقد والرفض أحياناً أخرى، فالرحالة لا ينقل الواقع نقلاً محايداً، بل يعيد تشكيله من خلال تجربته الذاتية ومواقفه الفكرية، مما يجعل صورة الآخر صورة نسبية تتداخل فيها الذاتية بالموضوعية والواقع بالتأويل.
- كما تبين أن صورة الآخر في أدب الرحلة تتعدد بتعدد مجالات الرؤية، فقد ظهرت صورة الآخر الاجتماعية من خلال تصوير العادات وأنماط الحياة والعلاقات الإنسانية، وتجسدت الصورة الحضارية في وصف التقدم العمراني والعلمي والتنظيمي، في حين برزت الصورة الدينية والسياسية عبر رصد الاختلافات الفكرية والعقائدية والأنظمة الحاكمة، وهذا التنوع يدل على شمولية الخطاب الرحلي وقدرته على احتواء مختلف مظاهر الحياة الإنسانية.
- يعد أدب الرحلة جنسا أدبيا لا يقتصر على تسجيل مشاهدات الرحالة ووصف الأمكنة التي يزورها الرحالة، بل يتجاوز ذلك إلى بناء رؤية فكرية وحضارية تعكس طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، فقد شكّل أدب الرحلة فضاءً للتفاعل الثقافي والحضاري، ومجالاً لاكتشاف الشعوب والعادات والتقاليد والأنظمة الاجتماعية والدينية والسياسية، الأمر الذي جعله وثيقة أدبية ومعرفية ذات قيمة كبيرة.
- يعد أدب الرحلة جنساً أدبياً منفتحاً على العلوم والمعارف الأخرى، إذ يتقاطع مع التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا لذلك أثار إشكالية التجنيس وصعوبة إخضاعه لقالب أدبي ثابت فهو يجمع بين السرد والوصف والتوثيق والتحليل، ويزاوج بين البعد الأدبي المعرفي مما أكسبه خصوصية فنية مميزة.

- التأكيد الجازم بأن الرحلة ليست مجرد انتقال مكاني بل هي تجربة إنسانية وفكرية تسهم في توسيع أفق الرحالة وتعميق وعيه بذاته وبالعالم من حوله ومن خلال الاحتكاك بالآخر تتجلى قيم الاختلاف والتسامح والتفاعل الحضاري، وهو ما يمنح أدب الرحلة أهمية ثقافية وإنسانية كبيرة.
- عبد الله الركيبي رحالة وناقد واع استطاع أن يقدم صورة موضوعية ومتوازنة للآخر، واستطاع أن يجعل من الرحلة وسيلة للحوار الحضاري ونقد الذات والبحث عن سبل النهضة والتقدم.
- قدم عبد الله ركيبي صورة متوازنة للآخر في مدينة الضباب ومدن أخرى فأبرز تقدمه الحضاري والعلمي وقيم الإنضباط والحرية في حياته الاجتماعية وفاعلية مؤسساتة السياسية وإحترامه للقوانين، كما رصد تراجع الدور الديني وهيمنة الطابع العلماني وقد جمعت هذه الصورة بين الإعجاب بمنجزات الآخر ونقد بعض سلبياته مما يعكس رؤية موضوعية قائمة على الحوار الحضاري والتفاعل الثقافي.
- اتسمت صورة الآخر في مدينة الضباب بالتوازن بين الإعجاب والنقد، حيث اعتمد الكاتب على المعاينة المباشرة والملاحظة الواقعية في تشكيل الصورة وتجلى الوعي الحضاري للرحالة خلال سعيه لفهم الآخر لا إدانته.
- تلعب الآليات الفنية في بناء صورة الآخر دورا مهما وكبيرا، مثل الوصف الدقيق، والسرد الذاتي والحوار والمقارنة والتعليق والانطباع الشخصي، وقد ساعدت هذه الآليات في تقريب صورة الآخر إلى القارئ ومنح النص الرحلي بعداً جمالياً وتواصلياً يجمع بين الإمتاع والإفادة.

وبناءً على ذلك يظل أدب الرحلة شاهداً حياً على التواصل بين الحضارات ومرآة تعكس تصورات الإنسان عن الآخر بما يحمله ذلك من أبعاد فكرية وثقافية وجمالية، الأمر الذي يجعل دراسة صورة الآخر فيه مجالاً خصيباً للكشف عن طبيعة العلاقات الإنسانية وتمثلاته في الخطاب الأدبي.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم من رواية ورش عن نافع، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 1405هـ

1_ المصادر:

1. ركيبي، عبد الله: في مدينة الضباب ومدن أخرى، سياحة أدبية، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط 1، 2003.

2_ المراجع:

أولا: الكتب بالعربية

1. إبراهيم، عبد الله: المركزية الغربية، إشكالية التكوين والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 1997.
2. أومليل، علي: في شرعية الاختلاف، دار الطليعة، لبنان، ط 1، 1991.
3. بحري، نصيرة: أدب الرحلة، إشكالية المصطلح وتنقيب المفهوم، دار نيبور للطباعة والنشر، العراق، ط 1، 2015.
4. بلقاسمي، بوعلام: تشكلات الفضاء في السرد الجزائري، دار الحكمة، الجزائر، ط 1، 2006.
5. بوطاجين، السعيد: في سردية الرحلة، مقاربات نقدية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008.
6. بوكربيش، رابح: الحركة المسرحية في الجزائر، دار الأمل، الجزائر، ط 1، 2003.
7. حسين، حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الأندلس، القاهرة، 1983.
8. حلبي، أحمد طعمة: صورة الغرب في الرواية العربية، مكتبة مدبولي، مصر، ط 1، 2007.
9. حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي: التجنيس، آليات الكتابة خطاب المتخيل، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2003.
10. حمود، ماجدة: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، (د ط)، 2000.

11. الخضر، حسين محمد: الرحلات، مطبعة التعاونية، دمشق، سوريا، 1976.
12. داود، محمد: السرد والرحلة مقاربات في الخطاب الأدبي، دار الأمل، الجزائر، ط 1، 2012.
13. ذاكر، عبد النبي: قضايا أدب الرحلة، مطبعة النجاح، المغرب، ط 1، 1998.
14. ذاكر، عبد النبي، الرحلة العربية إلى أوروبا، تشكل صورة الآخر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ط 1، 2004.
15. ساري، محمد: مقالات في النقد الأدبي الجزائري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2005.
16. الشاهدي، الحسن: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ المغرب، ج 1، ط 2، 2002.
17. شكري، غالي: الرواية العربية في رحلة العذاب، دار العودة، لبنان، ط 1، 1981.
18. الشيخ، خليل: باريس في الأدب العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط 1، 1998.
19. ضيف، شوقي: الرحلات. دار المعارف، القاهرة مصر، ط 4، 1955.
20. ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، د.ت.
21. الطاهر، أحمد مكي: دراسات في أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة مصر،1993.
22. الطهطاوي، رفاعة رافع: تخليص الإبريز في تلخيص باريس، مؤسسة هنداوي، القاهرة مصر،1934.
23. عمران، طالب: الخيال العلمي في الأدب العربي، دار الفكر، سوريا، ط 1، 2002.
24. غريب، جورج: أدب الرحلة وتاريخه وأعلامه، دار الثقافة، ط 3، 1979.
25. قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط 2، 2002.
26. كوسة، علاوة: السرد الرحلي الجزائري البنيات والدلالات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2017.
27. كيليطو، عبد الفتاح، الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، لبنان، ط 2، 1982.

28. لبيب، الطاهر: صورة الآخر، الغرب في التراث العربي، مركز الدراسات، الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1999.
29. لوقا، أنور: أدب الرحلات، دار الهلال، القاهرة مصر، د.ت.
30. مخلوف، عامر: مظاهر التجديد في الأدب الجزائري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط 1، 2001.
31. مرتاض، عبد المالك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، ط 1، 1998.
32. مصايف، محمد: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 2001.
33. مكي، الطاهر أحمد، دراسات في أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1993.
34. المنوني، محمد: تاريخ الرحلة الحجازية المغاربية، دار الغرب الإسلامي، 1998.
35. الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع هجري)، مكتبة الوفاء، القاهرة، مصر، ط 1، 1995.
36. الموسوي، محسن جاسم: الاستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط 1، 2007.
37. نصار، حسين: أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، ط 1، 1991.
38. نواب، عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن هجري، الرياض السعودية، 1996.
39. نويلي، يوسف: صورة الغرب في الخطاب الرحلي الجزائري المعاصر، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، ط 1، 2015.
40. وغليسي، يوسف: تحليل الخطاب السردي والرحلي في الجزائر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2011.
41. وغليسي، يوسف: في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2009.

ثانيا: الكتب المترجمة

1. باجو، دانيال هنري: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 1997.
2. سعيد، ادوارد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط 5، 1995.
3. كراتشكوفسكي، اغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، 1957.

ثالثا: المعاجم والموسوعات

1. شرفي، عاشور: معجم الكتاب الجزائريين، مؤسسة القصبة للنشر، الجزائر، ط 1، 2007.
2. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط 2، 1982.
3. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.
4. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط مادة صور، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ج 1، ط 8، 2005.
5. ابن منظور: لسان العرب، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة مصر، ج4.
6. مصطفى، ابراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار العودة، مصر ط2 1989.
7. وهبة، مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 1974.
8. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.
9. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال، الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية مجلد1 ، السعودية، 1999.

رابعا: المجلات والدوريات والجرائد

1. مجلة عالم الفكر، ع 3، الكويت، 2003،.
2. مجلة سلسلة شرفات، العدد 43، منشورات دار الأمان، ، المغرب، 2014.
3. مجلة التراث العربي، ع 11، إتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، 2009.
4. جريدة البصائر، العدد 542، الجزائر، 2011.

الملحق

الدكتور عبد الله ركيبي

في مدينة الضباب

ومدن أخرى

الأعمال الكاملة

DKA
دار الكتاب العربي

الملخص:

يتناول هذا البحث صورة الآخر في أدب الرحلة إعتمادا على كتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" لعبد الله ركيبي نموذجا، من خلال تحليل تمثلات الكاتب للغرب أثناء رحلته إلى لندن، وكشف البحث أن صورة الآخر جاءت متعددة الأبعاد قدمه بوصفه آخرا متقدما حضاريا يتميز بالنظام وإحترام الوقت والتطور العلمي، ورصد بعض الجوانب السلبية المرتبطة بالمادية والفردانية وضعف الروابط الاجتماعية، كما تناول البحث صورة الآخر الاجتماعية والسياسية والدينية مبرزا موقف الرحالة القائم على الملاحظة والمقارنة بين الأنا والآخر، معتمدا على الوصف والسرد والحوار والتأمل في بناء صورة، مما أضفى على الرحلة بعدا معرفيا وثقافيا يتجاوز مجرد تسجيل المشاهدات إلى محاولة فهم الآخر وتفسير مظاهر حظارته.

الكلمات المفتاحية: صور الآخر، أدب الرحلة، في مدينة الضباب ومدن أخرى، عبد الله ركيبي.

Abstract:

This research addresses the image of the "Other" in travel literature, taking the book In the City of Fog and Other Cities by Abdallah Rekibi as a case study, by analyzing the author's representations of the West during his journey to London. The study reveals that the image of the Other is multidimensional; the Other is presented as civilizationally advanced, characterized by order, respect for time, and scientific progress. It also highlights certain negative aspects associated with materialism, individualism, and weak social ties. Furthermore, the research examines the social, political, and religious image of the Other, highlighting the traveler's perspective, which is based on observation and comparison between the "Self" and the "Other." The author relies on description, narration, dialogue, and reflection to construct this image, which lends the journey a cognitive and cultural dimension that goes beyond merely recording observations to attempting to understand the Other and interpret the manifestations of their civilization.

Keywords: Images of the Other, Travel Literature, In the City of Fog and Other Cities, Abdallah Rekibi.

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

الإهداء

مقدمة: .....أ

الفصل الأول: المفاهيم والمصطلحات

تمهيد: 1

المبحث الأول: صورة الآخر في أدب الرحلة.....1

المطلب الأول: مفهوم الصورة لغة واصطلاحا.....1

المطلب الثاني: مفهوم الآخر لغة واصطلاحا 4

المطلب الثالث: صورة الآخر في الدراسات النقدية 6

المطلب الرابع: تمثلات الآخر في الأدب العربي.....7

المبحث الثاني: أدب الرحلة 9

المطلب الأول: تعريف أدب الرحلة لغة وإصطلاحا 9

المطلب الثاني: خصائص أدب الرحلة 12

المطلب الثالث: نشأة أدب الرحلة وتطورها 13

المطلب الرابع: أنواعها ودوافعها 16

خلاصة الفصل: 24

الفصل الثاني: تجليات صورة الآخر في كتاب في مدينة الضباب ومدن أخرى "لعبد الله ركيبي"

تمهيد: 26

المبحث الأول: عبد الله ركيبي ورحلته إلى مدينة الضباب 26

المطلب الأول: التعريف بالرحالة 26
المطلب الثاني: إضاءة حول رحلة الكاتب..... 29
المبحث الثاني: فضاء الرحلة 32
المطلب الأول: صورة الآخر الحضارية 34
المطلب الثاني: صورة الآخر الاجتماعية 38
المطلب الثالث: صورة الآخر السياسية 40
المطلب الرابع: صورة الآخر الدينية..... 43
المطلب الخامس: الآليات الفنية في بناء صورة الآخر في الكتاب 45
المطلب السادس: رسالة ركيبي للقارئ 48
الخاتمة:..... 51
قائمة المصادر والمراجع: 54
الملحق:..... 59
الملخص: 60

فهرس المحتويات